تحت القصف

الطبعة الأولى
1440 هـ
2018 م

اسم الكتاب: تحت القصف
التأليف: م/ محمد البديوي
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 176 صفحة
عدد الملازم: 11 ملزمة
مقاس الكتاب: 17.5x12.5
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2017/28580
الترقيم الدولي: 978-977-278-671-8

hakayaproduction@gmail.com

01551751909 - 01096476744

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

سلسلة روايات
(المهمة المستحيلة)
العدد: ٢

تحت القصف

بقلم
م/ محمد البديوي

سلسلة روايات

فارس الزمن

بقلم / محمد البديوي

العدد الأول

تحت القصف

عندما تنطلق بسرعة الضوء..

يتوقّف الزمن،

وتتلاشى المسافات،

وتختفي الحواجز،

ويتساوى الماضي والمستقبل.

داعبَ هذا الحلمُ خيال الكثيرين..

غير أنّ أحدًا لم يستطعْ تحقيقه.

رجلٌ واحد فعَلَ..

وانطلق يطاردُ الشرّ أينما كان..

من الماضي السحيق..

إلى المستقبل البعيد.

وهبَ حياتَه لتلك المهمّة..

لتلك المهمّة المستحيلة.

م/ محمد البديوي

١- تحتَ القصْف..

قصفٌ وحشي مِن البرّ والبحر والجوّ حول العاصمة العراقية بغداد إلى ما يُشبه الجحيم. الجثثُ تفترش الشوارعَ، الدماءُ والأشلاء في كلّ مكان، الآلافُ دُفنوا تحت الأنقاض، صيحاتُ الرعب والهلع امتزجتْ بدويّ الانفجارات، المساجد.. المدارس.. الجامعات.. المستشفيات.. حتى ملاجئ الأيتام ورياض الأطفال ودور المسنّين؛ لم تسلمْ من القصفِ، الجنودُ في كلّ مكان يوجهون الناس للملاجئ الأرضيّة، وآخرون أخذوا في إطلاقِ نيران مضادّاتهم الأرضية في محاولةٍ يائسةٍ لفعل أيّ شيء. ووسط هذا الجحيم، انطلقت صرخاتٌ بريئة من طفلة لم تتجاوز الثالثة مِن عمْرها، وقد حملها أبوها وأخذ يركضُ محاولًا الفرار بها من هذا الأتون المشتعل، غير أنّ أحدَ قذائف العمّ سام لم تمكّنه من ذلك، ومزّقته بوحشيّة إلى أشلاء، فلمْ يكنْ من جسدها الرقيق إلّا أنْ طار في الهواء، وسقط بجوار إحدى البنايات المشتعلة، في نفس الوقت الذي تطايرت فيه كتلٌ خَرسانية ضخمة من أحدِ المنازل بعد أنْ مزّقه

القصف، وتوجّهت إحداهما مباشرةً إلى حيث ترقد المسكينةُ.. عدّة أطنان سترتطمُ بعد ثوانٍ معدودة بالأرض، وتسحلُ جسدًا رقيقًا لا يتجاوز الكيلو جرامات، وبدا الموتُ مؤكّدًا لتلك الزهرة البريئة، يزحف نحوها بسرعة رهيبة، وكأنّ آلاف القنابل والقذائف والصواريخ لا تكفي للقيام بتلك المهمة الشيطانية. وبينما الوضع هكذا، وبينما المسكينة تنتظر قدرَها المحتوم، إذا بمَن يركضُ بأقصى سرعة قافزًا بجسده في الهواء، سابحًا فيه عدّة أمتار قبل أن يهبط منقضًّا عليها.. وقد احتواها بذراعيه جاعلًا من جسده درعًا بشريًّا لها، وأخذا في التدَحْرج على الأرض عدّة مرات قبل أن ترتطم، وعلى بعد عدّة سنتيمترات منه، أذنيه كتلة خرسانية ضخمة مُحدثةً دويًّا أشبه ما يكون بدويّ الانفجارات المتلاحقة هنا وهناك. وبسرعة خاطفة، حملها ذاك المُنقذ وأخذ يركض بها نحو أحد الملاجئ الأرضية، غير أنّ القصف حاصرَه؛ فاحتمَى خلف إحدى البنايات المهدَّمة، وأخذ يتفحّص المسكينة التي استبدّ الرعبُ بكيانها الصغير بحيث أفْقدَها القدرةَ حتى على مجرّد البكاء. وفجأة وبلا سابق إنذار، انطلقت تجري في أحد الاتجاهات

وقد استعادت جميعَ حواسّها دفعة واحدة بعد أن سمعت أكثرَ الأصوات ألفةً لها في هذا العالم يصرخ بلوعة هاتفًا باسمها:

ـ «فاطمة.. فاطمة ابنتي». وكانت الأمّ على الجانب الآخر من الشارع تبحثُ عن طفلتها بجنون، وما أن رأتْها حتى أخذت تصرخ بشكلٍ هستيريّ، وانطلقت نحْوها كالمجنونة تعبرُ الشارع غير عابئةٍ بما يتهدّدها من أخطار وموت محقّق قد يفاجئها في أيّة لحظة، والتقطت فلذةَ كبدها وضمّتها لصدرها بكلّ شوق الدنيا، وهي تصرخ قائلة:

ـ حمدًا لله يا حبيبتي أنّك بـ.....

ولمْ تستطعْ أن تكملَ؛ فلقد كانت تلك آخرَ كلماتها في هذا العالم... هذا العالم المليء بالشّرور والأحقاد... هذا العالم المليء برُعاةِ البقر. نعم لقد تحوّلت فاطمة وأمُّها إلى أشلاء تناثرتْ عبر الشارع بعد أنْ أصابتهم قذيفة صاروخية أمريكية إصابة مباشرة... مباشرة جدًّا.

وهنا، انتفضَ المنقذُ الذي كان يراقب ما يحدثُ وقد تفجّرت براكينُ الغضب بعروقِه وهو يصرخ قائلًا:

ـ سأمزّقكم أيّها الخنازير.

وأخذَ يركضُ والقذائف تنهمرُ مِن حوله، وكأنها تريدُ- وبإصرار- اقتناصَه انتقامًا لما توعّد به. وفجأة، تحوّل إلى حزمة ضوئية كبيرة اخترقتِ الهواء واخْتفت عنِ الأنظار بسرعة مُذهلة.. بسرعة رهيبة.. بسرعة الضوء.

***

على طريق مصر- الإسكندرية الصحراوي، انطلقت إحدى السيارات النفّاثة تشقّ طريقها صوْب القاهرة بسرعةِ ٦٠٠ كيلو مترًا في الساعة بارتفاع مترين عن الأرض، وكان يجلس خلفَ عجلةِ القيادة دكتور مدحت توفيق أخصائي جراحة القلب والشرايين بمستشفى القصر العيني، وقد استرخى بجسدِه المكتظّ على كرسي القيادة المصنوعِ من مادّةٍ أطلقَ عليها مخترعُها- وكان أحدَ علماء الكيمياء الفلسطينيّين- اسمَ «وسائد عدن»، وهي مادة شديدةُ النشاط الكيميائي بحيث إذا ما تمّ التأثير عليها بضغطٍ ما أيًّا كانت ضآلةُ هذا الضغط؛ فإنّ الذّرّات داخلَ جزيئات تلك المادة تُستثار بشكلٍ

كبير، وتتذبْذب حول مَداراتِها مُحدثةً حركةً اهتزازية سريعة للجزيْئات، ولا تتوقّف تلك الحركة إلّا إذا توقّف الضغط. وهكذا أخذ دكتور مدحت توفيق يحظى بعملية تدْليكٍ مستمرّة، زادت من استرخائه وهو في طريق عودتِه لمنزلِه بعد أن أجرى عدّة عمليات ناجحة بمستشفاه الخاص بمدينة الإسكندرية. ووسط حالة الاسترخاء تلك قامَ بالضغط على أحدِ الأزرار، فتحرّك تابلوه السيارة إلى جزْئين، وخرج من تجويفه- وبحركة آلية هادئة- شاشةٌ صغيرة تُشبه، إلى حدٍّ ما، شاشةَ أجهزة الكمبيوتر في القرن العشرين، ثمّ تحدّث قائلًا:

ـ صلْني بالمنزل.

وعلى الفور، أضاءت الشاشة، وظهرتْ مِن خلالها امرأةٌ بدأت الحديثَ قائلة:

ـ كيف حالُك يا مدحت؟ وكيف سارت الأمورُ معك اليومَ بغرفة العمليات؟

مدحت: حمدًا لله يا منى. لقد كان يومًا شاقًّا، لكنه كان موفّقًا بفضلِ الله. كيف حالُك أنت، والأولاد؟

منى: الحمدُ لله، كلّ شيء على ما يرام.

مدحت: هل حضرَ الضيوف؟

منى: نعم، لقد حضر الجميع، وكلّنا في انتظارك.

ابتسمَ بهدوء، وأردف قائلًا:

ـ وهو كذلك. فقط تسعُ دقائق وأكونُ معكم إن شاء الله.

ثمّ أنهى الاتصال مع زوجته، وأخذ يتابعُ الطريق من خلال تلك الشاشة، والتي كانت عبارةً عن جهاز «فيمتو سكرين»، وهو جهاز اتّصال وتتَبّع عن طريق الأقمار الصناعية، وهو بمثابة التليفون في القرن العشرين. وفجأة، تسمّرت عيناه وهو يحدقُ بشيء ما على الشاشة، ولم تلبث عيناه أن اتّسعت حين رأى شيئًا غامضًا يتحرّك بسرعة مذْهلة مُتجهًا مباشرة نحو سيارته، وازدادتْ دهشتُه وتحوّلت إلى خوف... خوف حقيقي حين ظهرتْ على شاشة الجهاز رسالةٌ تقول «لا توجد معلومات متوفّرة»، وبمنتهى التوتّر والارتباك، ضغطَ على أحدِ الأزرار، ونظر إلى الطريق مِن خلف زجاج السيارة المصنوع مِن ألياف الكربون، وكادَ يصابُ بأزمة قلبية حين

رأى هذا الشيء الغامض المتوهّج يقتربُ منه بسرعةٍ مُذهلة في طريقه نحو الاصطدام بسيارته.. وبحركة لاإرادية ضغطَ على زرّ تشغيل السائق الآلي؛ فانحرفت السيارةُ بغتةً وبشكلٍ حادّ إلى اليسار، ودارت حولَ نفسها دورةً كاملة قبل أنْ يمرّ هذا الوهَج الغامض بالقربِ منها بسرعةٍ خُرافية، ويراه مدحت من خلفِ زجاج سيارته أشبه ما يكون بقذيفةٍ ليزريّة انطلقتْ من مكانٍ ما قاصدةً سيارته، ثمّ توقّف محركُها الذي يعمل بالهيدروجين الذرّي، وهبطت.. وما أنْ لامست سطحَ الأرض حتى انفتحَ بابُها إلكترونيًّا بحركةٍ سريعة.. وهنا، قفز مدحت بخفّة ورشاقةٍ لا تتناسب مطلقًا مع ضخامة جسدِه إلى خارج السيارة، وأخذ يركضُ في الصحراء المُترامية الأطراف أمامَه، وقد استبدّ به الخوف والهلع، ولم يمكّنه جسدُه المكتظّ والرمالُ التي أعاقت حركتَه؛ مِن الابتعاد سوى بضعةِ أمتار قبل أن تخونَه قدماه ويهوي بجسدِه فوقَ الرمال، وقد أخذَ يبحثُ عن أنفاسه بصعوبةٍ بعد أنِ استلقى على ظهره ليجدَ السماء فوقه، وقد تناثرت بها النجومُ وسط سكونِ الصحراء المُطْبق، وظلّ هكذا لبضعة دقائق حتى هدأ واستعادَ أنفاسه،

ثمّ نهض وأخذ ينظرُ لسيارته وقد استقرّت على الأرض. وفي الوقت الذي أخذت السياراتُ الأخرى تنطلقُ كالومضات في هذا السكون، وقف مرتبكًا لا يعرفُ ماذا يفعل.. هل يرجع لسيارته، ويكمل طريقَه، ويتناسى ما حدث، أمْ ينتظر ويطلبُ المساعدة؟!

وبعدَ صراع استمرّ لعدّة دقائق، قرّر الرجوعَ؛ فتقدّم نحو السيارة ببطء وحذَر، بعد أنْ زالَ عنه بعضُ خوفه حين رأى الأمورَ تجري أمامَه بشكلٍ طبيعي. كان بابُ السيّارة قد أغْلق إلكترونيًّا فوْر خروجه منها، وهمّ أن يفتحَه لولا أنه تسمّر في مكانه حين وقع بصرُه على شيء ما على بُعد عدّة خطوات منه، لم يستطعْ في هذا الظلام أن يحدّد ماهيّته؛ فاقتربَ منه ليتعرّف عليه، وصُعق عندما رأى رجلًا ملقًى على الأرض فاقدًا الوعي، أخذ يحدقُ فيه بذهولٍ وقد تدافعتِ الأسئلةُ إلى رأسه بسرعةٍ رهيبة.. مِن أين جاء؟ هل سقط من السماء، أم انْشقّت عنه الأرض؟ ماذا أفعل؟ هل يمكن أن... غير أنّ غريزةَ الطبيب حسمتِ الأمرَ حين جثا على ركبتيْه، وأخذ يتفحّص الرجل الذي بدا وسطَ هذا الظلام بلا نزيفٍ أو كسور، فبحث

في ملابسِه عن أي شيء يُثبت هويّته، لكنّه لم يجد شيئًا، فحَمَله وبذلَ في ذلك مجهودًا خرافيًّا؛ حيث كان الرجلُ طويلَ القامة، ضخمَ البِنية، ولم تتعوّد عضلاتُ جرّاح القلوب على مثل هذا المجهود الشاق، ولكنّه في النهاية استطاعَ أن يدخلَه للسيارة، ولم يكدْ يفعل حتى صاحَ وهو يلقفُ أنفاسَه قائلًا:

ـ صلْني بمستشفى الشفاء للطوارئ.

وما هي إلّا عدّة ثوانٍ حتّى أضاءت شاشة «الفيمتو سكرين»، وظهر عبْرها أحدُ الأطباء وهو يقول:

ـ قسمُ الطوارئ معك. هل تستطيع أن تصفَ لي الحالة؟

مدحت: معي حالة إغماءٍ لرجل في منتصف الثلاثينيّات، وأشتبِهُ في كوْنها نزيفًا داخليًّا.

الطبيب: هل تستطيع يا سيدي أن تنزع ملابسَه، وترى إنْ كان ينزف مِن مكان ما بجسدِه. وتـ.....

قاطعه مدحت قائلًا: أنا أخصائي في جراحة القلب والشرايين، ولقد قمتُ بالفحص المبدئي ولم أجدْ شيئًا من ذلك.

الطبيب: حسنًا، أخبرني إذًا بنوع فصيلة الدم، والحالة الـ.....

قاطعه مدحت قائلًا: إنّه شخص مجهول الهوية.

ثمّ أخذ يتفحّصه ثانية قبل أن يردفَ قائلًا بتوتّر: سأكون عندكم في غضون ثلاث دقائق من الآن.

الطبيب: وهو كذلك، سنتّخذ اللازم فورًا.

أنهى مدحت الاتصالَ ثمّ غرق في بحرٍ من التساؤلات.. مَن هذا الملقى بجانبه؟ وكيف حدث له ذلك؟ ومَن فعل به هذا؟ وكيف.. وكيف.. وكيف.. عشراتُ الأسئلة أخذت تطارده بإصرار، فلقد كان يتوقّع بعد يوم شاقّ ومرهق في العمل أن يهنأ بأمسيةٍ هادئة مع عائلته وأقاربه في احْتفالهم بحفظ أصغر أبنائه للقرآن الكريم، ولكنّه الآن يجد نفسَه أبعد ما يكون ذلك.. أبعد تمامًا.

***

٢- سبق صحفي..

بأحد المباني الشاهقة المطلّة على نيل القاهرة الساحر، كان يقع مقرّ جريدة الحرية، وكان المكان من الداخل عبارة عن خليّة نحل، فالجميع يقوم بعملِه بنظامٍ وحماس ودقّة مُتناهية، وبغرفة الاجتماعات الرئيسية اجتمعَ رئيسُ التحرير بأعضاء هيئة التحرير في اجتماع أسبوعي استغرق ما يزيدُ عن الساعتين والنصف قبل أن يفتح باب النقاش، وكانت آخرُ مَن تحدّثت هي سلوى محفوظ- المحرّرة بقسم التحقيقات- وكانت فتاةً في أوائل العشرينيّات من العمر، وبالرغم من أنّها ترتدي الحجاب.. شأنها شأن جميع المحرّرات في الجريدة إلّا أنّه لم يستطع فعلَ شيء أمام ما تتمتّع به مِن جمالها الصّارخ، وقد حباها الله أيضًا بذكاءٍ متّقد وحماسٍ شديد ورغبةٍ جارفة في البحث عن الحقيقة، وبدتْ ملامحُها الحادّة تعكس ما تتميّز به من إصرارٍ وتحدٍّ.. وبالرغم من حداثة سنّها إلّا أنها تحظى باحترامِ واعجابِ الجميع، وعلى رأسهم رئيس التحرير الذي

بدا يتابعُها باهتمام، وهي تتحدّث بثقةٍ وحماس مِن بين الأماكن المخصّصة لجلوس المحرّرات، قائلة:

ـ سيدي رئيس التحرير، تعلم كما يعلمُ الجميع أن القضية التي طالما أثيرَ حولها الجدلُ في السابق، وهي قضية التنقّل عبر الزمن، تلك التي فجّرها ثانية أحدُ أشهر علماء الفيزياء الضوئية في العالم، وهو عالمنا الكبير الدكتور صادق عز الدين؛ لم تحسم بعد، فكيف تتوقّف الجريدة فجأة عنْ تناول تلك القضية التي تجذب اهتمامَ العالم بأسْره؟

ارْتسمت على وجْهِ رئيس التحرير ابتسامةٌ أبوِيّة، وهو يقول:

ـ لكن يا أستاذة سلوى، الجريدة لم تتوقّف عن ذلك إلّا بعد أنْ أعلن دكتور صادق، بنفسِه، أنه تخلّى عن مشروعه هذا.

سلوى: ولم توقّفَت؟ أليس هـذا سؤال جدير بالبحثِ له عن إجابة؟

ثمّ واصلت حديثها بحماسٍ وإصرار، وقد جذبت انتباهَ الجميع أنّ دكتور صادق هو أشهر عالم فيزياء ضوئية على سطح

هذا الكوكب، وهو مخترع منظومة شبكة الرّدع الفضائي، تلك التي قضت تقريبًا على الجريمة في الولايات المتحدة الإسلامية والعالم بأكمله، وبالتأكيد لم يتوقّف الرجل إلّا عندما هاجمته بعضُ الجرائد، واتّهمته بالخيال والجنوح.

رئيس التحرير:

ـ أعلمُ يا سلوى أنك بذلتِ مجهودًا كبيرًا في هذه القضية، ولقد كانت تحقيقاتك بالفعل تسعدُ القرّاء، ولكنّ الأمر الـ.....

قاطعته بهدوء:

ـ كلّ ما أطلبه يا سيدي هو إعطائي فرصة لإكمال آخر تحقيقٍ عن تلك القضية، وبعدها لن أتناولها مرة أخرى، ولم يجدْ رئيس التحرير أمام حماسها وإصرارها سوى الموافقةِ قائلًا:

ـ وهو كذلك يا سلوى، ولكنْ لا تتوقّعي أيّ تعاون من الدكتور صادق، خصوصًا بعد أن هاجمته بعضُ الصّحف كما أشرتِ أنت.

سلوى، وقد بدتْ على وجهها علامات الارتياح:

ـ شكرًا لك يا سيدي، سأكون دائمًا عند حسن ظنّك.

وانفضّ الاجتماع وسطَ إعجاب الجميع بتلك الشابّة العنيدة، وكان مِن بينهم- بلْ أشدّهم على الإطلاق- شابّ في منتصف العشرينيّات، قويّ البِنية، مفتول العضلات بشكلٍ ملحوظ، وقد بدتْ عيناه تتوسّلان، وتستعطف للحصولً على أيّة نظرةٍ منها فقط، أيّة نظرة عابرة ولو حتى عن طريق الخطأ، أنه بالرغم من صغر سنّه فإنّه بطل مصر في الملاكمة والمصارعة والجودو والكاراتيه، وهو ما يعدّ إعجازًا رياضيًّا أن يجمع أحد البطولة في هذه الألعاب المختلفة، وفي هذا السنّ فضلًا عن أنّه ابنُ أخت رئيس مجلس إدارة الجريدة، كلّ ذلك أصابه بنوعٍ من الغرور والنرجسيّة، بحيث بات يتصوّر أنه فارسُ أحلام أي فتاة، وأنه «دونجوان» عصره، فأخذ ينتقّل من فتاةٍ لأخرى، ومن حبٍّ لآخر معتمدًا على شهرته وثروته وقوّته، وكلّها مقومات تذهب بعقول المراهقات إرضاءً لغروره وتعويضًا لعقدة النّقص التي لم تفارقه يومًا في حياته؛ حيث أنّه لم يكن أبدًا «وسيمًا» في يوم من الأيام، وظلّ هكذا

لا يوقفه أحدٌ حتى قابل سلوى، وأرادها أنْ تدور في فلكِه، فلم يكنْ منها إلّا أنّها صدّته، وأوْقفته أمامَ مرآة الحقيقة؛ فرأى فيها ما هو عليه من تفاهةٍ وصبيانيّة، فتمسّك بها أكثر من أيّ فتاة عرفها، ولم يلبث أنْ هامَ بها، ووقعَ في حبّها، وصارحها بذلك، غير أنّها لم تعبأ به، وهو أيضًا لم ييأس، فلا يكاد يعرفُ بأحدٍ يتودّد إليها إلّا وأطاح به، وأزاله من طريقها، واستعان مرارًا بأصدقائها المقرّبين للتوسّط بينهما، غير أنّ كلّ محاولاته كانت تبوء جميعُها بالفشل؛ فسلوى كانت فتاة مِن طراز خاصّ، لم تبهرْها كلّ المظاهر البرّاقة التي أحاط بها نفسَه، ولم تأبه مطلقًا بالثروة والشهرة والنفوذ، وقلبُها هذا لم يخفقْ لأحدٍ حتى الآن.

غادر الجميعُ غرفة الاجتماعات، وأخذت سلوى تتحدّث مع رئيس التحرير أثناء سيرِهما عن بعض التفاصيل في تحقيقِها المُقبل، قبل أن يقطع حديثهما هذا العاشقُ الولهان علاء سالم المستشار الرياضي للجريدة، ومجنون سلوى- كما يطلقُ عليه كلّ مَن يعرفه- وهمّ بالتحدّث، إلّا أنها، وعلى الفور، انصرفتْ بعد أنِ استأذنت مِن رئيس التحرير وسط نظراتِ

علاء المُلتاعة الذي أخذ يراقبها بها حتى غابت عنه، وهنا ربتَ رئيس التحرير على كتفِه الضخم، فانتزعه مِن شروده قائلًا:

ـ يا بني، اهتمّ بعملك، وافعل شيئًا ذا قيمة يجعلها تلتفتُ إليك، بدلًا من أنْ تعذّب نفسك هكذا.

علاء: كيف يا أستاذ طلعت وهي لا تعطيني أي فرصة؟ إنها حتى....

قاطعه رئيسُ التحرير قائلًا:

– إنّها فتاة مِن نوع فريد، يجب أن تجبرَها على الاهتمام بك، لا أن تطلب منها ذلك، ولن يحدث ذلك إلّا بعمل شيء ذي قيمة يرفع من أرصدتك لديها، هذا إن كنت بالفعل....

اندفع علاء قائلًا: أقسمُ لك يا أستاذ طلعت أنّني أحبّها من كلّ....

قاطعه رئيسُ التحرير بدوره قائلًا: إذًا، فلتعمل بجدٍّ وحماس، وتجعل من نفسك فارسَ أحلامها، بعيدًا عن عالم القوّة والعضلات، هذا الذي لا يستهوي سوى التّافهات اللاتي تحيطُ بهم نفسك، كما أنّك بذلك تغضب الله باختلاطِك بهم، و...

قاطعه علاء باندفاع: أقسمُ لك أنّ جميع تلك العلاقات بريئة، ولا تتجاوز...

قاطعه رئيسُ التحرير مرةً أخرى بأنْ ربت على كتفه قائلًا:

ـ يا ولدي، لقد قالها معلّمُ البشرية عليه أفضلُ الصلاة والسلام «الحلال بيّن، والحرامُ بيّن».

ثمّ تركه لحيرته، وانصرف تاركًا إيّاه يضرب أخماسًا في أسداس.

دخلت سلوى مكتبها، فوجدت مَن تجلس في انتظارها، وما إنْ وقع بصرُها عليها حتى تهلّلت أساريرها، وارتسمت على وجهِها ابتسامةٌ عذبة، وأسرعت نحوها، وتعانق الاثنان، وأخذا يتبادلان القُبُلات بحرارة.

سلوى: كيف حالك ياهالة؟ لكَمْ أشتاقُ إليك! وكيف...

قاطعتها الأخيرةُ قائلة بودٍّ، وهي تعيد هندامَ حجابها بعد تلك المعانقة الحارّة:

ـ يا لَه مِن اشتياق! لقد بدأت أنسى أنّنا ابنتا خالة، إنّني لم أركِ منذ أكثر من ستّة أشهر.

سلوى: عذرًا يا حبيبتي، إنّني فعلًا مقصّرة، ولكنّها الصحافة حبّي الأوّل والأخير.

نظرت إليها، وسألتها بمكْرٍ قائلة:

ـ بمناسبة الحبّ، ما أخبارُ مجنون سلوى؟ ألا يزال يلهث في صحرائك القاحلة؟

ارتفعت ضحكاتُهما قبل أن تردفَ سلوى قائلة:

ـ كفاكِ مزاحًا، وأخبريني كيف حال زوجك مراد، وابنك حسام؟

هالة: الجميعُ بخير والحمد لله، وعندي لك موضوع كما تسمّونه أنتم معشر الصحفيّين بسبقٍ صحفي.

بدتْ سلوى أكثر جديّة، وهي تستفسر منها قائلة:

ـ كلّي آذانٌ صاغية يا شارلوك هولمز، ما الأمر؟

ضحكتْ هاله قبل أن تردفَ قائلة:

ـ الأمرُ يبدو كما لو كان مستحيلًا، رجلٌ وجِدَ ملقًى في الصحراء، و.....

قاطعتْها سلوى بدهشة: عذرًا يا سيدتي! رجلٌ ماذا؟ هل تعْنين....

قاطعتْها هالة وهي تقول: رفقًا بنفسك يا حبيبتي، إنّ ما ذكرته لا يساوي شيئًا بالنسبة لما هو آت..

سلوى: إذًا، أسرعي يا هالة؛ فالفضول يكاد يقتلني.

هالة: الرجلُ كان بلا هوية، وحين أجريتُ أنا ومراد اختبار(الدي إن إيه) لتحديد هويّته، كانت المفاجأة المُذهلة أنّ نتائج هذا الاختبار لم تتطابق مع أيّ شخص موجود بمصر أو الولايات المتحدة الإسلامية، أو باقي سكان العالم. وهنا، لم تستطعْ سلوى التزامَ الصمت أكثرَ من ذلك، واندفعت قائلة: هل أنتِ متأكّدة مِن نتائج هذه الـ.....

قاطعتْها هالة: نعم يا سلوى، جميع الفحوصات سليمة، فأجهزتنا لا يمكن أنْ تخطئ، وبالرغم من ذلك فلقدْ قُمنا بإعادة إجراءِ الاختبار عدّة مرّات، وكانت النتيجة تخرجُ كلّ مرّة لتقول إنّ هذا الرجل مجهولُ الهويّة، ولقد طلب مديرُ المستشفى من مراد إعدادَ تقريرٍ نهائيّ عن حالة هذا الرجل، وذلك قبل أن يبلغ الجهات المختصة.

سلوى: مستحيل ما تقولينَه يا هالة!!

ثمّ اندفعت تسأل بكلّ فضول الدنيا: ولكنْ أينَ هذا الرجل الآن؟ هل أستطيعُ أنْ أراه، وأتحدث معه؟

هالة: إنّه موجود بالمستشفى، و....

ولمْ تمهلْها سلوى؛ فلقد جذبتْها من ذراعها برفق، وهي تقول: إذًا، هيّا بنا.

هالة: إلى أين يا سلوى؟ ربما تكون المستشفى الآن ممتلئة بـ.....

قاطعتْها سلوى قائلة: أيًّا كان الأمر، يجب أن أذهب.

وأمام إصرارها لم تجدْ هالة سوى الانصياع لابنة خالتها العزيزة، وانطلقا معًا إلى المستشفى.

***

بإحدى غرف الطوارئ بمستشفى الشفاء، كان يرقد على السرير الوحيد الموجود بالغرفة؛ رجلٌ في بداية عقده الثالث، وكان وسيمًا طويلَ القامة عريضَ المنكبين رياضي البنية، وقد

بدأ يستعيد وعْيه شيئًا فشيئًا، ولم يكدْ يمتلك حواسّه حتى الْتفت، وبحركة لا إراديّة لمعصم يدِه فلمْ يجد تلك الساعة التي كانت تحيطُ به.

وهنا، عصف الرعبُ بكيانه، وانتفضَ من السرير، وأخذ يتفحّص محتويات الغرفة، وبالرغم من صغر حجمها إلّا أنها بدتْ له كصحراءَ مترامية الأطرافِ ابتلعت ما يبحثُ عنه، وكانت الغرفة تمتلئ بأجهزةٍ بدتْ له شديدة التعقيد، وأدرك أنه داخلَ إحدى المستشفيات، ثمّ وجد بجوار السرير الذي كان يرقدُ عليه أسطوانةً داكنة اللون بارتفاع مترٍ واحد تقريبًا عن الأرض، وكان يوجد بقاعدتها العليا، وفي منتصفها تقريبًا شيءٌ ما أشبه ما يكون بكرةٍ سوداءَ صغيرةٍ، فضغطَها ولم يكدْ يفعل حتى اختفتِ القاعدة تمامًا، وكأنّها تبخّرت في الهواء. ولم يلبث أنْ تنفّس الصعداء حين وجدَ تلك الساعة بداخلها تلك الساعة التي لم تكن سوى جهازِ تفتيتٍ أيونيّ يقوم بتحويل مادّة الجسم البشري إلى فوتونات ضوئية تنطلق في الفضاء بسرعة الضوء، ثمّ يعيد الجهاز عكسَ أقطابه، ويقوم بتكثيفِ وتجميع مادّة الجسم البشري مرّة أخرى، ولكن في بُعدٍ آخر

هذه المرة، وهذا ما حدث له بالضبط حين فرّ مِن بغداد وقتَ أنْ كانت تقصف بوحشيّة مِن رعاة البقر.

أخذ شهاب الساعةَ بلهفة، ووضعها حول معصمه، ثمّ عاد إلى السرير، واستلقى عليه وأخذَ يفكّر في المجهول الذي ينتظره. كان على يقين أنّه في المستقبل.. بدليلِ كلّ تلك الأجهزة المتطوّرة التي امتلأت بها الغرفة، والتي بدتْ بلا أيّ أسلاك أو ما شابه، فقط أنابيب دقيقة تمرّ بداخلها أشعّة الليزر، وأخذت عشراتُ الأسئلة تطارده بحثًا لنفسها عن إجابة.. إلى أيّ مستقبلٍ قفزَ عبرَ الزّمن؟ وما الأوضاع السائدة به؟ أهي أوضاع جيدةٌ ستمكّنه من الرجوع، وإنقاذ

الآلاف من الأبرياء مِن حلفاء الشيطان، أمْ هي أوضاع أكثر سوءًا من الماضي؟ وظلّ هكذا غارقًا في تساؤلاته، وفجأة تهلّلت أساريره، وانتفض من السرير بعد أن رأى شيئًا ما. شيءٌ كفيل بأنْ يجيبَ على جميع تساؤلاته، بل ويُطْلعه على كلّ كبيرة وصغيرة في هذا العصر. واندفع نحوه، وكاد قلبُه يرقص فرحًا؛ فلقد كان هذا الشيء عبارةً عن جريدة كانت موضوعة بجوار أحد الأجهزة، وعلى الفور التقطها شهاب،

وكان أول ما بحث عنه هو تاريخ اليوم، وكما توقّع تمامًا وجدَ التاريخ ١٦-٣-٢٢٧٦م، إنّه في المستقبل... المستقبل البعيد، ثمّ أخذ يقرأ بشغفٍ بالغ لمعرفة ما يدور في هذا العصر، وكانت ابتسامتُه تتّسع شيئًا فشيئًا، والسعادة تجتاح كيانَه كلّما طوى صفحاتِها.. صفحةً تلو الأخرى. لقد كان كلّ شيء في هذا العصر شديدَ الإبهار، كلّ شيء به يدلّ على القوّة والعظمة والمجد.. هذا المجدُ الذي لم يكنْ له في هذا العصر سوى جنسية واحدة، الجنسيّة العربية. نعم لقد كان المجدُ في هذا العصر مجدًا عربيًّا خالصًا انعكسَ علي كلّ شيء، بتلك الجريدة أخبار وعناوين كثيرة ألهبت مشاعرَه وملأتْه بالفخر والعزّة، ولقد كان من حُسن الطالع أنّ ذلك اليوم يوافقُ الاحتفالَ بمرور مائة وخمسين عامًا على تحقيق حلم الوحدة العربية الكبرى بين جميع الدول العربية، والإعلان عن قيام الولايات المتحدة الإسلامية كدولة للوحدة، وعاصمتها مدينة القاهرة، وامتلأت الجريدة بأخبارٍ مثل «الاحتفال بمرور مائة وخمسين عامًا على تحرير القدس» بعرضٍ عسكريّ ضخم للجيش العربي الثالث (كتائب حمزة بن عبد المطلب) بمدينة القدس،

بحضور رئيس الولايات المتحدة الإسلامية، وأعضاء مجلس الشورى الإسلامي. وخبرٌ آخر يقول «الاحتفالُ بمرور مائة وخمسين عامًا على إنشاء الجيش الإسلامي الموحد (جند محمد)»، وآخرُ يقول «تحتفل الولايات المتحدة الإسلامية بمرور مائة وثلاثين عامًا على استرجاع الأندلس»، وكان أكثر ما أسعدَه وأثلجَ صدره خبرًا يقول «الاحتفال بمرور مائة وعشرين عامًا على محاكمات واشنطن الشهيرة».

وكان تفصيل الخبر يقول «تحتفل الولايات المتحدة الإسلامية بمرور مائة وعشرين عامًا على المحاكمات الكبرى التي أجريت لمجرمي الحرب مِن الأمريكان والإسرائيليّين عن جرائم الإبادة الجماعية والقتل والتعذيب التي ارتكبتها جيوشُهم في حقّ الشعوب العربية والإسلامية، وذلك منذ منتصف القرن العشرين، وحتى عام ٢٠٥٠م.. وتمّت هذه المحاكمات في مدينة واشنطن، العاصمة السابقة لما كان يُعرف في الماضي بالولايات المتحدة الأمريكية، والجديرُ بالذّكر أنّه تمّ تغيير الاسم القديم للمدينة بعد الانتهاء مباشرةً مِن المحاكمات؛ حيث أطلق عليها اسمُ مدينة «الدّرّة» تخليدًا

لذكرى استشهاد طفل فلسطيني في عام ٢٠٠٠م يُدعَى محمّد الدرّة؛ حين قام جيش الاحتلال الإسرائيلي وقتَها بإطلاق الرصاص عليه حين كان برفقة أبيه في طريقه للمدرسة، وخرج الرئيسُ الأمريكي وقتَها يدين الطفلَ وأبيه لسيرهما في أماكن يطلق فيها الجنود الإسرائيليّون النار، و.....

وهنا، قاطعتْه وانتزعتْه من طوفان السعادة الذي كان يغمرُه طرقاتٌ على باب الغرفة، أعقبها دخولُ دكتورة هالة ومعها ابنة خالتها الباحثة دومًا عن الحقيقة- سلوى- وهنا بدأت الشكوك والمخاوفُ تساورُه، فها هُم سكّان المستقبل، فهل سيستوعبون قصّته، ويساعدوه، أمْ يتّهمونه بالجنون؟ أو ربّما يتطوّر الأمر لما هو أسوأ. وانتزعته الدكتورة هالة من هواجسِه عندما وجّهت له الحديثَ قائلة: حمدًا لله على سلامتك، أنا دكتورة هالة. وأشارت لسلوى التي ارتدتْ زيَّ أطباء المستشفى قائلة: وهذه دكتورة سلوى. لم تعقّب سلوى بشيء، وبدت تنظرُ لشهاب بتمعّن، في حين أردفَ شهاب قائلًا وهو ينظر إليهما: أشكرُكم على حُسن الرعاية، وأعتقد

أنّني الآن في حالة جيدة تسمحُ لي بالخروج. وانتصبَ واقفًا وهو يردفُ قائلًا: فعندي الكثيرُ لأقومَ به.

وهنا، قاطعتْه سلوى قائلة: وماذا تعمل يا سيدي؟!!

ثمّ صمتَتْ لثوانٍ قبل أن تكملَ: إنّنا حتى الآن لا نعرفُ ما اسمك!

نظرَ إليها، وقال بهدوء: اسمي شهاب.

وهنا، حدث شيء ما بداخلها، شيء لم تستطعْ تفسيرَه، ولكنّها تستطيع أن تجزمَ بقوّة.. وفجأة، دلف الدكتور مراد إلى داخل الغرفة، وما إنْ رأى «شهاب» واقفًا بقامته الممشوقة وبِنيتِه الرياضية حتى خاطبه قائلًا: حمدًا لله على سلامتك، أنا الدكتور مراد.

ولم يلتفتْ لهالة وسلوى في بادئ الأمر، وتابع حديثه: إنّ إدارة المستشفى ترغبُ في الاستفسار منك عنْ بعض الأشياء.

ثمّ التفتَ لهالة وسلوى وهي ترتدي زيّ أطباء المستشفى، ففهِمَ على الفور أنّ تلك الصحفيّة المشاكسة قدْ أتت وراءَ

سبقٍ صحفي؛ فقال موجّهًا حديثه لها بسخرية: أهلًا بك يا دكتورة سلوى، أنتِ وابنة خالتك تشكّلان فريقًا رائعًا. وهنا، ارتبكت هالة، في حين بدت سلوى هادئة تمامًا وهى تقول: أهلًا بك يا دكتور مراد.

لم يعلّق مراد، ووجّه حديثه لزوجته قائلًا: إنْ كنت انتهيتِ يا دكتورة؛ فلتتبعيني لمكتبي؛ فعندنا الكثيرُ من العمل.

زاد ذلك مِن ارتباكها، وهي تومئ برأسِها إيجابًا دون أن تتكلّم، وغادر الجميع الغرفة تاركين «شهاب» بمفردِه، وفور خروجِهم حاولت سلوى التحدّثَ لمراد إلّا أنّه كان أسرعَ منها، وبادرها بالحديث قائلًا: كي أوفّر عليكِ عناءَ الحديث؛ لقد علمت بالطبع من هالة قصّة هذا الرجل، ولكنّ الذي لا تعلمينه أنّ المكانَ سيمتلئ بعد قليلٍ برجال الأمن القومي، بعد أن قدّمت تقريرًا نهائيًّا عن نتائج الفحوصات الجينيّة لهذا الرجل، وأغلبُ الظنّ أنّ السبق الصحفي الذي جئت سعيًا وراءه.. لم يعدْ ممكنًا الآن.

ثمّ همّ بالانصراف قائلًا بسخرية: يومًا سعيدًا يا سادة.

ولم يكدْ يفعلُ حتى قالت هالة لسلوى: إنّ مراد معَه حقّ يا سلوى، فلتنسي هذا الأمر، وعودي للجريدة، وباشري عملَك ولا تورّطي نفسَك في شيء.

سلوى: معك حقّ يا هالة، وخصوصًا أنّ عندي الكثير لأقومَ به.

ثمّ ودّعتها، وانصرفت وسطَ شكوك هالة التي تعرف ابنة خالتها جيدًا، وما تتمتّع به من إصرار لا يتناسب مطلقًا مع استسلامِها السريع هذا.

***

بمكتب مدير المستشفى دكتور شفيق عبد الوهاب كان يجلس الدكتور مراد والدكتور شفيق، وبرفقتهما عددٌ من رجال الأمن القومي العربي، وعلى رأسِهم الرائد صلاح بسيوني، أو المطرقة كما يطلقُ عليه زملاؤه بالعمل؛ لمَا يتمتّع به من جديّة وصرامة في أداء عمله تتّسم في بعض الأحيان بالشراسة والقسوة في التّعامل مع القضايا المختلفة التي تسنَدُ إليه ممّا جعله مِن أكفأ رجال الأمن القومي العربي، ويكفى القول بأنّه لم يفشل في أيّة قضية كُلّف بها حتى الآن.

أخذ الرائد صلاح يقلّب بصره بين الدكتور مراد ومدير المستشفى الدكتور شفيق قبل أن يوجّه حديثَه لمراد متسائلًا: أنتَ إذًا مَن استقبلَ هذا الرجل يا دكتور مراد عند قدومه للمستشفى، أليس كذلك؟

مراد: بلى، هذا صحيح.

صلاح: وماذا كانت حالتُه حين رأيتَه؟

مراد: كان يعاني من حالة فقدان وعي.

صلاح: وما هي ملاحظاتك الأوليّة حين رأيتَه؟

مراد: كان طويلَ القامة، رياضي البنية كما لو كان أحدَ العسكريّين أو الرياضيّين، ولم يكنْ به أيّ آثار لأيّ اعتداءٍ أو ما شابه.

صلاح وقد وجّه حديثَه لمدير المستشفى: مَن أتى به يا دكتور شفيق؟

دكتور شفيق: أحد الأطباء ويُدعى مدحت توفيق، وهو أخصائي بجراحة القلب والشرايين بالقصر العيني، وقد ترك عنوانَه لدى أمن المستشفى.

عاد الرائد صلاح بتساؤلاته للدكتور مراد قائلًا: هل استردّ ذلك الرجل وعيَه يا دكتور مراد؟

مراد: نعم، منذ نصف ساعة تقريبًا.

وهنا، قام الرائد صلاح؛ فقام الجميع، ووجّه كلامَه للدكتور شفيق مدير المستشفى قائلًا: ممنوع الإدْلاء بأيّة أحاديث صحفيّة لحين الانتهاءِ من التحقيقات.

ولمْ يكدْ ينهي كلماته حتى قفزتْ لرأس مراد كلّ هواجس وشكوكِ الأرض، بعد أن تذكّر سلوى، تلك الصحفيّة المشاكسة، وسبقها الصحفي الذي تسعى وراءه، وبدا التوتّر يعلو وجهَه وهو يسير برفقةِ الرائد صلاح ورجاله، ومعهم مدير المستشفى إلى حيث يوجد رجلُ الصحراء الغامض.. إلى حيث يوجد شهاب.

***

سمع شهاب طرقاتٍ للمرّة الثانية على باب الغرفة، واندفعت سلوى إليها بمفردِها هذه المرّة، وهي تقول بانفعال:

ـ شهاب، أو أيًّا كان اسمك، هيّا أسرعْ يجب أن تغادر المكان فورًا، وسأساعدك في..

قاطعَها شهاب: ما الأمر يا دكتورة سلوى؟ إنّني...

قاطعتْه هي الاخرى وهي تقذف إليه بزيّ أحد الأطباء: لا يوجد وقتٌ للنقاش؛ فلقد علمَ رجال الأمن القومي بأمرك، هيّا أسرع قبل فواتِ الأوان.

لم يجدْ شهاب بدًّا مِن الانصياع لما تقول، وارتدى زيّ أطباء المستشفى، ثمّ غادراها على عجل، وركبا شيئًا ما يُشبه السيّارة إلى حدٍّ كبير، إلّا أنها بلا إطارات، وارتفعت بهم عن الأرض مسافةً ما، ثمّ انْطلقت كالقذيفة، ومن داخلِ تلك السيارة العجيبة بدا شهاب مبهورًا بما حوله مِن تِقنياتٍ وتقدّم يكادُ يذهب بالعقول، وهمّ بالتحدّث لولا أنِ استوقفه ذلك الظهور المباغتُ لحائل زجاجي داكنِ اللون، امتدّ مِن أرضيّة السيارة حتّى سقفها، وفصلَ بينهما فَصلًا تامًّا، وتحدّثت هي عقبَ ذلك مباشرة قائلة: إنّ خلوةَ الرجل بالمرأة الأجنبية حرّمه الله، عزّ وجل، كما أنّ قانون الولايات المتحدة الإسلامية يجرّمُ ذلك.

شهابُ بمزيجٍ من الإعجاب والسعادة: إنّني مسلمٌ والحمد لله، و...

قاطعتْه بدوْرها:

ـ أعلمُ ذلك. فلقد أكّدت الفحوصات التي أجريَت عليك وجودَ تركيزات عالية لأيونات الأكسجين على الوجه والأطراف ناتجةٍ عن الماء المستَخدم في الوضوء، كما أنّ دمكَ لم يتواجدْ به مطلقًا أيُّ خمور أو لحم خنزير على مدار عمرك البالغ ٣٣ عامًا.

كان شهاب مبهورًا طيلةَ الوقت بما يسمع، وكان مندهشًا جدًّا.. كيف لا يمنعُ هذا الحائل الزجاجي المحكَمُ انتقالَ الصوت بينهما بهذا الوضوح، بحيث كان يسمعُها طيلة الوقت، وتسمعه!؟ ولكنّه عزَى ذلك للتقدّم المُذهل لهذا العصر، كما أنّه كان يشعرُ بما هو أهمّ من ذلك بكثير.. مَن تكون تلك الفتاة؟ وماذا تريد؟ وهل هي مصدرُ خطر؟ حاول استكشاف الأمر، وخاطبها مِن خلف الحائل قائلًا:

ـ ما الأمر يا دكتورة سلوى؟

ابتسمتْ سلوى بتلقائيّة، بالطبع لم يرَ شهاب تلك الابتسامة مِن خلف هذا الحائل الدّاكن، ولكنّه شعر بها في نبرة صوتها، وهي تقول:

ـ أنت الذي تسأل ما الأمر! إنّ بالمستشفى الآن العشراتِ مِن رجال الأمن القومي العربي ممّن يريدون أنْ يعرفوا ما الأمر!!

ثمّ صمتتْ لبرهة قبل أنت تقول:

ـ مَن أنت؟

شهاب: إنّ الأمر يا دكتورة سلوى....

قاطعتْه بهدوء:

ـ بالمناسبة، أنا لست طبيبة، أنا محرّرة صحفيّة بقسم التحقيقات بجريدة الحرية، وأرغب في مساعدتك، ولكن أن.....

قاطعَها:

ـ ولماذا؟

سلوى: عفوًا..

شهاب: لماذا ترغبين في مساعدتي!؟

ارتبكتْ قليلًا، وشعر هو بذلك وهي تردفُ قائلة:

ـ لنقُلْ إنّه.....

قاطعَها قائلًا:

ـ إنّه السبقُ الصّحفي.

أتاه صوتُها مرّة أخرى ممزوجًا بالدّهشة والتعجّب:

ـ مَن أنت؟

ـ أنا شهاب.

ـ يا لَه مِن جواب! هل تعتقد أنّ رجال الأمن القومي سيسعدهم جوابك هذا حين يسألونك عن هويّتك، وعن تواجدك بالصحراء، و.....

قاطعَها بودّ، وبشيء مِن البهجة:

ـ رجال الأمن القومي العربي.. الولايات المتحدة الإسلامية، محاكمات واشنطن الكبرى، لا تستطيعين أنْ تتخيّلي ما أشعرُ به مِن سعادة وانا أسمعُ ذلك!

أتاه صوتُها هذه المرّة محمّلًا بمزيجٍ مِن الدّهشة والتعجّب، وهي تقول بسخرية:

ــ هل سقطتَ مِن المريخ، أم جئت من.....

قاطعَها برفق:

ـ أحقًّا تريدين مساعدتي؟

منى: بالتّأكيد.

شهاب: وهل لي أنْ أعرف كيف ستساعدينني؟

سلوى: سأوفّر لك مكانًا آمنًا، وإنْ كنت متورطًا في شيء ما سأحاولُ أن أساعدك، ولكن يجبُ أوّلًا ان أعرفَ ما هي قصّتك؟!

شهاب: وماذا لو كنتُ لصًّا أو قاتلًا، أو شيئًا مِن هذا القبيل؟

سلوى وقد اكتسى صوتُها بشيء من الودّ:

ـ لم تبدُ لي كذلك حين رأيتُك في المستشفى لأوّل مرة.

ثمّ ران صمتٌ طويل داخل السيارة قبل أن يردفَ شهاب قائلًا وهو ينظر إلى الطريق أمامه، والذي لا يكادُ يلمح منه شيئًا مِن شدّة السّرعة التي تنطلق بها سياراتُ هذا العصر..

ـ وهو كذلك.

***

ما هذا الهراء؟ أين هو؟ صاح الرائد صلاح بهذه الكلمات حين دخل الجميع الغرفةَ ولم يجدوا «شهاب».. وهنا، نظر مديرُ المستشفى- دكتور شفيق- إلى الدكتور مراد متسائلًا: ألمْ تكنْ معه منذ قليل يا دكتور مراد؟

مراد: نعم هذا صحيح، ولكنّني لا....

وهنا، انفجرَ صلاح في وجهِه بشكل فجٍّ: ما هذا الإهمال! أنت المسئول أمامي، أنت آخرُ مَن كنتَ معه، ولن.....

وهنا، لم يستطعْ مراد أن يحتملَ أكثر مِن ذلك، وقاطعَه بحدّة وقد شعر بالإهانة: إنّني لا أسمحُ لأحدٍ أن يخاطبني بهذا الأسلوب، إنّني لم أكنْ مكلّفًا بحراسته، أو مراقبته، إنّي طبيبٌ ولست رجلَ أمن.

نزلت كلماتُه على الرائد صلاح كالدّش البارد، وأصابتْه ببعض الارتباك الذي سرعان ما تحوّل إلى غضبٍ يُضاف إلى رصيدِ الغضب الذي بحوْزته، وأخذ يرمقُ «مراد» بنظراتٍ عدائيّة قبلَ أن يشيح بوجهِه عنه قائلًا لَمن حوله بانْفعال: هيّا، يجب أن نتحرّك بسرعة؛ فعندنا الكثيرُ لنقوم به.

وانطلق هو ورجالُه، ولم يكدْ يفعل حتى انْدفع مراد يسأل مديرَه باستنكار: كيف تسمحُ له يا دكتور شفيق بأنْ يخاطبنا بهذا الأسلوب الوقح!؟

دكتور شفيق: بالفعل إنّ أسلوب هذا الرجل فجّ بعضَ الشيء، ولكنْ لا تُنكر يا مراد أنّ الأمر، بالفعل، مزعجٌ.. أين اختفى ذلك الرجل الغامض هكذا فجأة!؟ وكيف لم يتمّ تسجيل خروجه؟ إنّ الأمر يستدعي إجراءَ تحقيقٍ داخلي، وسأشرعُ فيه فورًا، ولا تنسَ أنّ هؤلاء الرجال، وإن كانوا يتّسمون بالفظاظة والآلية في تعاملاتهم، إلّا أنهم يحملون على عاتقِهم حمايةَ الأمن القومي لدولةٍ مُترامية الأطراف يبلغُ تعدادُ سكّانها ما يزيدُ عنْ نصف سكّان كوكب الأرض، واختفاء

هذا الرجل على هذا النحو من المستشفى يجعلنا في موضع ريبةٍ وشكّ، ولا تنسَ أنّك قد لقّنته درسًا، وأوقفته عند حدّه.

ثمّ صمتَ لبرهة قبلَ أن يقول: لا شكّ أنّ تلك القضية ستسبّب الكثيرَ من المتاعب قبل أنْ تتكشّف وتتّضحَ معالمُها.

ثمّ تركَه وانصرف، ورجع مراد إلى مكتبه، والغضبُ والحِنق يملآنه بعد أن أصبحَ موضعَ ريبةٍ وشكّ، وما إنْ وجد زوجتَه الدكتورة هالة حتّى انفجر في وجْهها قائلًا: ما هذه الأمور الصبيانيّة يا دكتورة؟ كيف تسمحين لنفسك أنْ تشاركي في مثل هذه الأفعال المريبة!؟ كيف....

قاطعتْه باستغراب: ما الأمر يا مراد؟ إنّني لا أعر.....

قاطعَها بحدّة: أوّلًا تذهبين لسلوى وتضعين أمامَها تقريرًا مفصّلًا عن ذلك الرجل الغامض، ثمّ تأتين بها متنكّرةً للمستشفى، وأخيرًا تنهينَ ذلك كلّه بأنْ تساعديها في تهريب الرجل، و.....

وهنا، قاطعتْه باستنكار: كفاكَ يا مراد، إنّني حتى هذه اللحظة لمْ أكنْ أعرفُ بأمر اختفاءِ ذلك الرجل، ثمّ إنّني لا أتورّط في مثل هذه الأفعال.

ثمّ ازدادت حدّةً وهي تقول: والأفضلُ أنْ أترك لك المكان قبلَ أن يزدادَ الوضعُ سوءًا.

ثمّ اندفعت خارجَ المكتب غاضبة، في حين أخذَ مراد يرْقبها وهو يغمغمُ قائلًا:

ـ يا لَه مِن يوم!

***

جلسَ شهاب على أحدِ المقاعد الوثيرة، وكان يجلس أمامَه مباشرةً رجلٌ في بداية عقدِه السادس، وكان رجلًا مَهيبًا تبدو عليه، وبوضوح، علاماتُ الصّرامة والحزم، يتمتّع وهو في سنوات عمره السّتين بقامةٍ فارهة وبِنية رياضية مَتينة، وكانت نظراتُ عينيه الحادّة تكادُ تنفذُ إلى أعماق شهاب، وتتجوّل بداخله، بحيث باتَ يشعرُ، الأخير، وكأنّ ذلك الرجل يقرأ أفكارَه، وقد أخذ يداعبُ بهدوءٍ لحيتَه الرّمادية القصيرة. كان المكانُ حديقةَ فيلّا ذلك الرجل، وكانت الأشجارُ تلفّها مِن كلّ ناحية، وتُخفيها تمامًا عن الأنظار بما يتناسب ويتلاءم مع طبيعة أحدِ أشهرِ جنرلات جهاز الأمن القومي العربي

السابقين، الجنرال أمين محفوظ جدّ سلوى لأبيها التي أخبرتْه عنْ ذلك الرجل الغامض الذي وجِدَ ملقًى فاقدَ الوعي في الصحراء، وكيف أنّ اختبارات «الدي إنّ إيه» لم تستطعْ أن تحدّد هويّته، وكيف أنّها ذهبت للمستشفى، واصْطحبته معها قبلَ وصول عناصر جهاز الأمن القومي إليها، كان الجنرال قد عكفَ، ومنذُ تقاعدِه على كتابة مذكّراته إلى أنِ اتّصلت به حفيدتُه المحبّبة إلى قلبه تطلبُ منه المساعدةَ في معرفة حقيقة هذا الرجل الغامض لتحصلَ على سبقٍ صحفيّ لن يتكرّر، وأقْنعته بعد مجهودٍ شاق إلّا يبلغ جهازَ الأمن القومي قبل أن يجلس ويتحدّث معه، وكيف أنّ إحساسها يؤكّد لها أنّه لا يشكّل خطرًا على أحد. بدا شهاب لسلوى وهي تنظر إليه من داخل الفيلّا كأحدِ أبطال قصص ألف ليلة وليلة الأسطوريّين، وقد خرج لتوّه مِن بين صفحاتها يثيرُ مِن حوله مزيجًا من الغموض والجاذبية، بحيث باتتْ تغمغمُ بشرود:

ـ ما الذي يحدثُ لي منذ أن رأيتُ هذا الرجل!؟ إنّني أفقدُ السيطرة تمامًا! هل هو السبقُ الصحفي، أمْ هي الشفقة؟ أمّ

ماذا؟ هل يمكن أن يكون الحبّ؟ لا.. لا.. مستحيل، إنّني حتى لا أعرفه..

ثمّ انتزعتْ نفسَها مِن هذا الشرود، وحملت ما أعدّتْه وتوجّهت به إلى حيث يجلسون. وفي هذه الأثناء، ران صمتٌ طويل بين الرجليْن، بحيث لم ينبثْ أحدُهم ببنْت شفة قبلَ أن تقطع سلوى ذلك الصمتَ، وتردفُ قائلة:

ـ هل يسمحُ رجلُ الصحراء بمساعدتي؟!

وهنا، انْتبه شهاب، وابتسم قائلًا، وهو يحمل عنها ما صنعتْه:

ـ عذرًا، فالحديثُ مع جدّك مُمتع لأقصى حدّ.

قال ذلك وهو ينظرُ للجنرال في محاولةٍ يائسة لإضفاء بعض المرح على هذا الجوّ الخانق، غير أنّ الأخير لم يحِرْ جوابًا، وبدا أكثرَ صرامة قبل أن يردفَ أخيرًا قائلًا:

ـ مَن أنت يا فتى؟

بدتْ تلك الكلماتُ القليلة لشهاب ثقيلةً.. ثقيلةً جدًّا، فماذا سيقول؟ وهل سيصّدقه أحد؟ وهل سيجدُ العون

والمساعدة؟ وهمّ أنْ يتحدّث لولا أنِ استوقفتْه إشارةٌ حادّة من الجنرال، أعقبها بقوله:

ـ يجب أن تجدَ ما تقنعني به، وإلّا فعناصر الأمن القومي سيكونون فجأة أقربَ إليك مِن ذلك المقعد الذي تجلس فوقه.

نظرتْ إليه سلوى، وقالت: اسمع يا شهاب، لا توجد مشكلة بلا حلّ، ولو كنت متورّطًا في شيء؛ فلتخبرني بالحقيقة كاملة، وحتمًا سنجدُ حلًّا، وحتمًا....

قاطعَها بلطف: لا أريد أنْ أصيبك بالإحباط، ولكنّ قصتي أبعدُ ما تكون عن السبقِ الصحفي الذي...

قاطعتْه هي الأخرى، وقد بدا عليها التبرّم والغضب، وهي تقول: هل تعتقدُ أنّني أفعل كلّ ذلك من أجلِ هذا السبق الصحفي!؟

نظر إليها بودّ، ثمّ وجّه حديثَه للجنرال أمين مُحاولًا أن يضفي بعضَ المرح على هذا الموقف العصيب، وهو يشير لبعض الفطائر التي أعدّتها سلوى قائلًا:

ـ هل تسمحُ لي يا سيدي، فلمْ أعدْ أستطيعُ مقاومة تلك الرائحة الشهية.

أشار إليه الجنرال، وقد زالتْ عنه بعضُ حدّته، أو هكذا أراد أن يقنعَ «شهاب»، وأردف قائلًا:

ـ تفضّل، على الرّحب والسّعة، غير أنّ نظراته العميقة الثاقبة بدتْ أكثر تركيزًا وهي تحاصر «شهاب».. تحاصره تمامًا.

في حين أردفتْ سلوى قائلة بشيء مِن التأثّر، وهي تنظر لشهاب: ألكَ أسرة؛ زوجة وأولاد، وحياة اجتماعية؟

شهاب: كان لي..

سلوى: كان! ماذا تعني بكان؟ هل تعني.....

قاطعَها شهاب: دعكِ مِن هذا الآن، هل حقًّا تريدين مساعدتي؟

ثمّ وجّه حديثَه للجنرال أمين مرّة أخرى قائلًا: هل أستطيعُ أنْ أطلب المساعدة؟

أسرعت سلوى، وبادرته قائلة: بالتأكيد، وإلّا ما فعلت كلّ هذا.

في حين أردف جدُّها قائلًا بنبرةٍ لا تخْلو من الصرامة، وإنْ أراد أن يبعثَ من خلالها بعض التّطمينات لكسبِ ثقة شهاب:

فقط إذا أطلعتني على الحقيقة كاملة.

ونظرًا لما يتمتّع به شهاب من ذكاءٍ حادّ؛ استشعرَ صدقَ الرجل ونواياه الحسنة تجاهه، ولكنّه ظلّ مُحتفّظًا بحذره وحرصِه، وأردف قائلًا:

ـ إذًا، فلتثقوا بي، فلست خطرًا، ولا أمثّل تهديدًا لأحد، ولا...

قاطعَه الجنرال بهدوء: إذًا، ما هي قصّتك؟ وكيف كنت ترقدُ في الصحراء فاقدَ الوعي؟ و.....

قاطعَه باستغراب: أكلُّ المشكلة أنّني كنت أرقدُ في الصحراء فاقدَ الوعي! ماذا لو فقدتُ وعْيي في مكانٍ آخر!؟ على كرسي مثل الذي أجلسُ عليه هنا؟! ألنْ يسبّب ذلك مشكلةً وقتها؟

نظرَ إليه بمزيجِ الشكّ والدّهشة في حين أسرعتْ سلوى بالقول:

ـ إنّك تتحدّث وكأنّك لا تنتمي لهذا العصر.

ولو أنّها تعلم أنّ عبارتها تلك تحمل كلّ الأجوبة على تساؤلاتها لما سألتْ بعدها؛ لأنّه لن يكون هناك وقتٌ سوى لشيء واحد، ليس الدهشة كما هو متوَقّع بل الحزن.. الحزن الذي سيضرب كيانَها كالإعصار المدمّر.

لم يعقّب شهاب، في حين واصلتْ حديثَها قائله بدهشة:

ـ لو أخذنا في الاعتبار أنّه لا توجد حوادثُ سيّارات، ونحن في أواخر القرن الثالث والعشرين بعد اخْتراع السيّارات النفّاثة، ولو أضفنا إلى ذلك أنّ مكانًا مفتوحًا كالصحراء يستحيلُ أن يتعرض فيه أحدٌ للهجوم أو الاعتداء دونَ أن تصيبه شبكةُ الردع الفضائي بدفقات مِن أشعة الليزر قبل أن تعتقلَه الشرطة بدقائق؛ لو جمعنا كلّ ذلك سيظهر سؤالٌ في غاية الإلْحاح.. مِن أين جئت؟ وكيف فقدتَ وعيك هكذا في الصحراء؟

تفهّم شهاب غرابةَ تواجُدِه في الصحراء فاقدَ الوعي، غير أنّه بادرها قائلًا: ألا يُحتمل أنْ أكون فقدتُ الوعي في مكانٍ ما لا تستطيعُ فيه شبكة الرّدعِ التدخلَ، ثمّ أخذني أحدُهم وألقاني في الصحراء، ولـ...

قاطعه الجنرال، وقد بدأت الدهشةُ والحيرة تعلوان وجهَه:

ـ وقتَها، ستتدخّل شبكة الرّدع فورًا؛ لأن هذا تحركٌ عدائي سترصده الأقمارُ الصناعية التي تعمل من خلالها الشبكة.

ثمّ أردف وقدْ ظهرت الحدّةُ والصرامة مرّةً أخرى في نبرةِ صوته:

ـ يجبُ أن تتحدّث قبل فواتِ الأوان، وإن كنت لا ترغبُ في ذلك الآن فسنتركُك تستريح، ولربّما يحمل الغدُ شيئًا تقوله.

ثمّ تركَه وانصرف، وتبعتْه سلوى وهي تقول لشهاب:

ـ المكانُ بالداخل مجهّزٌ بكلّ شيء، وأرجوك لو احْتجتني في أيّ وقت فالفيمتوسكرين بالداخل مُخَزّن عليه كلّ أماكن تواجدي.

وابتعدت عدّةَ خطوات قبلَ أن ينادي عليها شهاب هاتفًا باسْمها:

ـ سلوى.

ولسببٍ غامض.. سببٍ مجْهول كاد قلبُها يرقص فرحًا حين سمعته ينطقُ باسْمها؛ فاستدارت إليه وقد حاولتْ باسْتماتة أن تخفي معالم الفرحة على وجهها، ولم تكدْ تفعل حتى خاطبها بودّ قائلًا: أشكرُك على كلّ شيء.

نظرتْ إليه، ولم تحرْ جوابًا، واتّجهت- هي والجنرال أمين- نحْو سيارتها، ثمّ استقلّاها، وانطلقت بهما وهو يرقُبُها وهي تنطلق كالصاروخ، وأخذ يغمغمُ قائلًا:

ـ لقد قلتُها يا صغيرتي دونَ قصدٍ. نعم.. إنّني قادمٌ مِن عصر آخر، عصر يحكمُه السّفّاحون والمجرمون، عصر يحكمُه رعاةُ البقر.

وظلّ يتابع السيارةَ ببصره حتى غابت تمامًا عن الأنظار، ولم يكنْ هو الوحيد الذي يفعل ذلك؛ فمِن داخل إحدى السيارات على مقربةٍ من فيلّا الجنرال أمين أخذتْ نيرانُ الغيرة

تأكل قلبَ علاء سالم، وقدِ اغْرورقَت عيناه بالدموع، وبكلّ غضب الدنيا صرخَ قائلًا:

ـ أقسمُ يا سلوى أنْ أجعلك تندمين.

***

بإحدى القاعات المجهّزة لعرض شرائط المسح الفضائي بمبنى إدارة جهاز الأمن القومي العربي، جلس مدير الجهاز والرائدُ صلاح مع عددٍ مِن الخبراء العسكريّين من الجيش والمخابرات والأمن الفضائي، وكان مِن بين الحاضرين الدكتور صادق عز الدين أحد أشهر علماء الطبيعة في العالم، ومخترع شبكة الردع الفضائي، وكان الرائد صلاح- أو المطرقة- قد اسْتجوب، في وقت سابق، دكتور مدحت توفيق أوّل مَن رأى «شهاب» ملقًى في الصحراء وقام بنقلِه إلى المستشفى، وتعرّف منه على ملابسات الأمرِ بكلّ دقّة بعد أن قامَ باعتصاره الرجلُ في تحقيق استمرّ قرابةَ الثلاث ساعات ليلةَ أمس، وعليه أوصى بعقدِ هذا الاجتماع.

أعطى مديرُ الجهاز أوامرَه بالبدءِ في عرض الشريط الذي ظهرَ به طريقُ مصر الإسكندرية الصحراوي، والسيارات النفّاثة تخترقه كالوَمَضات بسرعتها الفائقة، ثمّ ظهر بغتةً خيطٌ رفيعٌ متوهّج مرّ بسرعة مذهلة بالقرب من أحدِ السيارات، ثمّ لم يلبثْ أن اخْتفى أيضًا فجأة. وهنا، أردف مديرُ الجهاز قائلًا: حسنًا يا سادة، أيّ تساؤلات قبل أن نتوقّف؟

ولم يكدْ ينهي كلماته حتى تحدّث الدكتور صادق عز الدين قائلًا: أريد عرضَ الفيلم منذُ بداية ظهور هذا الخطّ المضيء بدرجةِ بطءٍ ١٥٠ من سرعته الفعليّة، وبدرجةِ اقْتراب٢٥٠ درجة.

مديرُ الجهاز: وهو كذلك.

ثمّ أشار بيده لتنفيذ مَطْلب الدكتور صادق الذي أخذَ يحدقُ في الفيلم لعدّة ثوانٍ بدقّة بالغة قبل أن يردفَ قائلًا: وهو كذلك، يكفي هذا.

ثمّ أضيئت أنوارُ القاعة، وبدأ الجميعُ يدلي بتكهّناتٍ وتخْمينات واسْتنتاجاتٍ، في حين بدا الدكتور صادق صامتًا

لا يتكلّم، ولم يخرجه عن صمتِه إلّا توجيهُ مدير الجهاز حديثَه له قائلًا: وما رأيُك أنت يا دكتور صادق؟ أراك صامتًا طيلةَ الوقت.

د/ صادق: مع احترامي الشّديد لكلّ ما سمعت، ولكن هذا الذي ظهرَ واختفى فجأة ليس قذيفة ليزريّة، أو إشارة ليزريّة أخطأتْ طريقها من محطةِ توجيه أرضية لأحد الأقمار الصناعية كما قال البعضُ؛ فالسرعة التي انطلق بها هذا الوهجُ الغامض كما اتّضح من الشريط الذي شاهدْناه هي نفسُ سرعة الضوء، ويعلم الجميع أنّني كنت أعملُ بأحد المشاريع المتعلّقة بالتنقّل عبْر الزّمن عن طريق الوصول لسرعة الضوء، غير أنّني توقّفت لأنّ هذه السرعة غير متوفّرة عمليًّا، وإن لم أكنْ مخطئًا فإنّ هذا الذي شاهدناه ما هو إلّا جسمٌ منطلق بسرعة الضوء.

صمت الجميعُ لبرهةٍ من الوقت، وبدتْ عليهم علاماتُ التشكّك والدهشة قبل أن يردف صلاح قائلًا: ولكنّك قلت قبلَ لحظات إنّ هذه السرعة ليستْ مُتاحة، وإنّ ذلك هو سببُ توقّفك عن مشروعك؛ فما الأمر إذًا؟

د/ صادق: نعم، لقد قلت إنّ هذه السرعة غير متوفّرة حتى الآن، ولكنّني وبصفتي عالم أكادُ أجزم أنّه مع تطوّر العلم وتقنياته ستصبحُ هذه السرعة مُتاحة فيما بعد، وربّما يكون هذا الذي شاهدناه ما هو إلّا جسم قادمٌ من المستقبل، ومُنطلقٌ بسرعة الضوء، مِن الممكن أنـ.....

قاطعَه مدير الجهاز: ولكنّ هذا الرجل الذي وجِدَ ملقًى في الصحراء ما علاقتُه بكلّ ذلك؟

د/ صادق: لا أستطيعُ أن أجزم بشيء قبلَ أن أرى هذا الرجل، وأجْري عليه بعضَ الفحوصات. ولكن قبل ذلك فليس عندي غير ما قلتُه.

ومرّت بعد ذلك عدّةُ دقائق قبل أنْ ينتهي الاجتماع، ويوجّه مدير الجهاز الشكر للجميع، ثمّ يقترب من الدكتور صادق ويخاطبُه باحترام بالغ قائلًا: نأسف لإزعاجك يا دكتور صادق؛ فإنّي أعلم أنّ وقتكَ ثمينٌ للغاية، و.....

قاطعَه قائلًا: على الإطلاق، فوقتي بالكامل من أجلِ هذا الوطن وأمنِه، وأنا رهنُ إشارتك في أيّ وقت.

ثمّ صافحَه وانصرف، وقدْ أخذ المطرقة، أو الرائد صلاح، ومدير الجهاز يتابعانه بنظراتهما حتى غابَ عنهما، ثمّ أردف مديرُ الجهاز قائلًا: أنت مكلّف يا صلاح بإيجادِ رجل الصحراء هذا بأقصى سرعة، وأعتقدُ أن مهمّتك لن تكون شاقّة بعد أن حصلت على صورته من الفيلم.. فكلام الدكتور صادق عنِ المستقبل وهؤلاء القادمين منه بدأ يُقْلقني.

أدّى صلاح التحيةَ العسكرية لمدير الجهاز بقوّة وحماس قائلًا: سيكون لدينا في أقلّ من ٢٤ ساعة يا سيدي.

مدير الجهاز: أنت مَن حدّدت الوقت، فلا تتعدّاه.

صلاح: لا تقلقْ يا سيدي، سأكون عند حُسن ظنّك كما كنتُ دائمًا.

٣- الحربُ العالميّة الثالثة..

أخذ «شهاب» يتجوّل داخل الفيلّا التي كانت تتكوّن من طابقين حيث صعدَ إلى طابقها الثاني، ودخل أحدَ الغرف، وإذا به أمامَ مكتبةٍ ضخمة تشغل مساحةَ أحدِ الحوائط بأكملها، وما كاد يقع بصرُه عليها حتى اندفع نحوها بلهفةٍ يتفحّص مُحتوياتها، وكأنّه يبحث عن شيء ما بعينه، وتهلّلت أساريره حين وجد أحدَ الكتب الضخمة يحمل عنوانَ تاريخ الحرب العالمية الثالثة، وكان لأحدِ أشهر الكتّاب الإنجليز في تلك الفترة، فالتقطه وجلسَ على أحد المقاعد الوثيرة، وبدأ في القراءة، وكان الفصلُ الأول بعنوان (كيف اندلعت الحرب؟) وأخذ الكاتب يجيبُ قائلًا: كان المحرك الرئيسُ لاندلاع هذه الحرب هو زيادة وتنامي كراهية شعوبِ العالم لما كان يُعرَف في الماضي بالولايات المتحدة الأمريكية، فبعد انهيار الاتحاد السوفيتي الذي لم يكن أقلَّ منها كراهية في أواخر القرن العشرين، وبعد أن أصبحت أمريكا هي القوة العظمى الوحيدة في العالم، أصاب ذلك الأمريكان بنوعٍ من جنون

العظمةِ وهَوَس القوّة، وبدؤوا يتعاملون مع الشعوب والدول الأخرى بمنطق شريعة الغابِ للمحافظة على تسيّدهم للعالم وسرقةِ ونهبِ خيراته للإبقاء على مستوى الرّفاهية الصارخ الذي كانوا يعيشون فيه مِن دمِ تلك الشعوب لما يزيد عن قرن ونصفٍ من الزمان بحيثُ كانت الملايين من البشر في أفريقيا وآسيا تموت جوعًا ومرضًا في الوقت الذي عاش فيه الأمريكان وحلفاؤهم في ثراءٍ فاحش، وكانت هناك عدّة بؤر كفيلة بأنْ تنطلق منها الشرارةُ الأولى للحرب، وكانت أشدّ تلك البؤر احتقانًا هي المنطقة العربية، ففي المنطقة العربية أدى الاضطهاد الأمريكي الشنيع للعرب والمسلمين الذي بلغ ذروتَه في نهاية القرن العشرين؛ للحدّ الذي صرّح فيه الرئيس الأمريكي وقتَها بأنه سيقودُ بلاده إلى حرب صليبيّة جديدة ضدّ العرب والمسلمين، وما تلا ذلك من تكوين تحالف أمريكي ـ أوروبي واحتلال عدّة دولٍ عربية وإسلامية؛ أدّى ذلك كله إلى ارتفاعِ رصيد الكُره والعداء لأمريكا وحلفائها، وخصوصًا بعدَ المجازر والمذابح التي ارتكبها الإسرائيليّون ضدّ العرب، وساندتها فيها أمريكا بالدّعم

السياسي والعسكري، وظلّ الإسرائيليّون يمارسون التّنكيل والإذلالَ للعرب بدعم صارخ من الأمريكان على مدار قرنٍ ونصفٍ من الزمان، وما كان يقترفُه الأمريكان بدورهم مِن بشاعات وقهرٍ وتنكيل ضدّ المسلمين خصوصًا العرب منهم، حتى جاء عام ٢٠٧٦م وقام الجيشُ السوري بهجوم مُباغت على ما كان يُعرف في الماضي بـ «إسرائيل» وكبّدَها خسائرَ فادحة، واستطاع أن يحرّر مُرتفعات الجولان الإستراتيجيّة، وأنْ ينشر بها منصّات لإطلاق صواريخ «سكود» المحمّلة برؤوس بيولوجية، وهدّدت سوريا وقتَها بمحْو إسرائيل مِن الوجود إنْ لم تنسحبْ من جميع الأراضي العربية التي احتلّتها، وألهبت انتصارات الجيش السوري مشاعرَ الشعوب العربية، وخرجت مظاهراتُ الفرح والتأييد في طول البلاد العربية وعرْضِها، وطالبت الشعوبُ حكوماتها بمساعدة سوريا وجيشِها، وتدخّلت أمريكا وقتَها بكلّ قوّتها لإنقاذ إسرائيل التي كانت، ولأوّل مرة، تحت رحمةِ جيشٍ عربي يستطيعُ أن يبيدَها في أقلّ من٣٠ دقيقة، وأخذت أمريكا تلعب دورَ الوسيط لحلّ الأزمة، وأخذت تناور وتراوغُ في محاولةٍ لكسب

الوقت مُسْتعينة بحلفائها في المنطقة، وبينما الوضعُ هكذا إذْ تمكّنت أجهزة المخابرات الأمريكية التي كانت تُعرَف وقتها بـ «السي أي إيه» مِن اغتيال الرئيس السوري وعددٍ كبير من قيادات الجيش، ووسط حالة البلبلةِ والفوضى التي عمّت جميعَ أنحاء المنطقة، قامت أمريكا بضرب دمشق والجيشِ السوري بالجولان ضربةً نوويّة مركّزة أدّت إلى إبادة القوات السورية وإبادة نحو مليون سوري، وعلى الفور أسرع الإسرائيليّون باحتلال الجولان إضافةً للشمال السوري بأكمله وسطَ فظائع وبشائع ارتكبوها ضدّ المدنيّين، وماجت المنطقة وقتَها بالمظاهرات المطالبةِ بالثأر والانتقام إلّا أنّ هذه المظاهرات تمّ قمعُها بمنتهى العنف والشراسة، وبات بركانُ الغضب كامنًا يغلي في الصدور مُنتظرًا ساعة الانفجار .

وفي شبه الجريرة الكوريّة، وهى المنطقة التي انطلقت منها الشرارةُ الأولى للحرب، كانت أمريكا قد أشعلتْ في بدايات النّصف الأول من القرن العشرين حربًا طاحنة بين أبناء الشعب الكوري راح ضحيته الآلافُ من أبناء الشعب الواحد، وذلك دفاعًا عن مصالحها وأهدافها الاستعمارية،

وبالرغم من أنّها لم تستطعْ إحراز النصر.. لكنها استطاعتْ أن تقسّم شبه الجزيرة الكورية إلى شطريْن؛ شطرٍ شمالي وشطرٍ جنوبي، واحتلّت الشطر الجنوبي تحت دعوى حماية الجنوب من هجوم شمالي مُتوقّع، هذا الهجوم الذي لم يحدثْ طوال قرن ونصفٍ من الزمان، ومنذ هذا التاريخ وحتى الحرب العالمية الثالثة عام ٢١٧٦م كانت أمريكا تفرضُ حصارًا حديديًّا على كوريا الشمالية، وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي في أواخر الثمانينيّات من القرن العشرين بدأ التحرّش الأمريكي يزدادُ قوّة وشراسة، ولّما كانت كوريا الشمالية دولًا فقيرة في مواردها الطبيعية فقدْ أثّر الحصارُ الأمريكي فيها أشدَّ التأثير، وبالرغم من ذلك استطاع الكوريّون الشماليّون أن يكونوا قوّةً عسكرية ضخمة وترسانةً نوويّة هائلة، وبقيت مُنعزلة عن العالم مُنغلقة على نفسها تقاوم الحصار والاستفزاز الأمريكي حتى استكملت بناءَ برنامج الرّدع الصاروخي الفضائي التي كانت تعملُ به سرًّا على مدار خمس عقود من الزمان، واستطاعت أن تخفيَه عن أعين أجهزة المخابرات الأمريكية

والمخابرات الغربية الأخرى، وكان هذا البرنامج بمثابة بدايةِ النهاية لإمبراطورية الشرّ الأمريكية؛ ففي أحدِ فصول الشتاء القارص بكوريا الشماليّة حيث كان هناك نقصٌ شديد في إمدادات الوقود والغذاء بسبب الحصار الأمريكي؛ ممّا تسبّب في وقوع مجاعةٍ رهيبة عمّت جميعَ أرجاء البلاد حتى بدأ الأطفالُ والعجائز يموتون من الجوع والبرد. وهنا، حسم قادةُ الحزب الشيوعي الحاكم بكوريا الشمالية أمرَهم وقرّروا غزو كوريا الجنوبية وضمّها إليهم لتكوين دولة كوريّة موحّدة إنقاذًا لشعبها من الموت جوعًا، وقد خطّطت لذلك على النحو التالي:

١- توجيه ضربةٍ نووية إستراتيجيّة للقوات الأمريكية المُتَمركزة في كلٍّ من كوريا الجنوبية واليابان.

٢- غزو بريّ شامل بقوّات ضخمة لكوريا الجنوبية، وإبادة ما تبقّى من قوات أمريكية بها.

٣- قصف الساحل الشرقي للولايات المتحدة الأمريكية بصواريخ عابرةٍ للقارات تحملُ رؤوسًا بيولوجية.

وفي الأوّل من يناير، وفي أعياد الميلاد من عام ٢١٧٦م، قامت كوريا الشمالية بفتح النار على القوات الأمريكية، وأبادت نحو ١٥٠ ألف جنديّ أمريكي بكامل معدّاتهم، ثمّ قامت المدفعيةُ الثقيلة بعيدةُ المدى بقصف المطارات والموانئ والمصانع الحربية والطرق والكباري داخل كوريا الجنوبية، واستمرّ القصف نحو خمسِ ساعات أعقبَه اجتياحُ أكثر من مليون جنديّ كوريّ شماليّ لكوريا الجنوبية، واحتلّوا العاصمة «سول» في أقلّ من ثلاث ساعات دونَ مقاومة تُذْكر، ومن جرّاء الضربةِ البيولوجية المباغتة والتي تلقّتها ولاياتُ الساحل الشرقي الأمريكي وقعت مذابحُ رهيبة لملايين الأمريكان، وباتتْ أمريكا على شفا الانهيار الداخلي، وجنّ جنونُ البنتاجون وأصيب بالسّعار، وبات العالمُ متأكدًا من أنّه سيقوم بمحْو كوريا الشمالية من على خريطة العالم في أوّل ردّ فعلٍ له، وبالفعل قام البنتاجون بإعلان حالة التّعبئة في صفوف قوّاته النووية، وقام بإطلاق ٣٠ صاروخًا عابرًا للقارات يحمل رؤوسًا نوويّة، وكان هذا العددُ الضخم مِن تلك الصواريخ كفيلٌ بتدمير كوريا الشمالية خمسَ مرّات،

ولكنّ المفاجأة التي أذهلت العالم وقتَها هي إطلاقَ كوريا الشمالية لصواريخ مضادّة عبرتِ الغلاف الجوي للأرض ودمّرت الصواريخ الأمريكية في الفضاء الخارجي قبل وصولها للأرض، وحتى حطامُها لم يصلْ للأرض.. بل تناثرَ في الفضاء الخارجي، ولم ينجُ صاروخٌ واحدٌ من ذلك، بل تمّ تدمير الثلاثين صاروخًا تدميرًا كاملًا. وهنا، عرف العالم بأمْر منظومة الدفاع الفضائي لكوريا الشمالية، وأعاد البنتاجون المحاولةَ عدّة مرّات وبصورٍ مختلفة غير أنّها باءت جميعُها بالفشل، وذلك بفضل دقّة وكفاءة السلاح الجديد للكوريّين الشّماليّين، والذين هدّدوا وقتَها بأنهم سيستكملون قصفَ العمق الأمريكي بترسانتهم النووية إنْ لم تعلن الأخيرةُ استسلامَها، ولّما كانت أمريكا لا تمتلك منظومةً مماثلة لصواريخ الرّدع الكورية، وبعد أن فقدتْ كلّ قواتها في المنطقة، وبعد أن دمّرت الضربةُ النووية الإستراتيجية التي نفّذها الجيش الكوري الشمالي بنجاح حاملاتِ الطائراتِ والقطع البحرية والمدمّرات الأمريكية في المحيط الهادئ؛ لجأت أمريكا لحلف شمالِ الأطلنطي وأوروبا لإنقاذها من هزيمةٍ محقّقة، ولكنّ

هزائمها الثقيلة أمام الكوريّين والرعبَ الذي أصاب العالم بعد إبادة ولايات الساحل الشرقي الأمريكي بالسلاح البيولوجي الكوري الشمالي أدّى إلى التزام معظم دول أوروبا الحيادَ، ولكنّ الأمريكان دفعوا جيدًا لقادةِ هذه الدول، ومَن تمسّك بموقفه قامت أجهزة مخابراتها بتصفيتِه، وقامت بتدبير انقلابات على البعض الآخر، وكمحصلةٍ نهائية استطاعتْ بعد شهرٍ ونصف من نفس العام أن تكون جبهةً قوية تضمّ بجانبها بريطانيا وفرنسا وإسرائيل وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا وأستراليا وكندا والمكسيك، وعدة دول أخرى، وذلك للقيام بغزو كوريا الشمالية. وهنا، أعلنت الأخيرةُ أنها تتكفّل بالدفاع عن أيّة دولة تدخل الحرب ضدّ أمريكا والتحالف الغربي من أيّة هجمات نوويّة أو بيولوجية أو كيماوية، وشجّع هذا الإعلانُ شعوبَ العالم المقهورة التي عانتْ لسنوات طويلة من القمع والتنكيل مِن أنظمتها الحاكمة، والتي تدينُ بالولاء الأعمى للولايات المتحدة الأمريكية، وحدثت إطاحات جماعيّة في مناطق عديدة من العالم، وكان للمنطقة العربية نصيبُ الأسد من هذه الإطاحات وتمّت الإطاحة في اليابان بنظام الحكم

الإمبراطوري الموالي لأمريكا على يدِ جنرال ياباني قومي يُدْعى هاشيموتو، والذي دعا للانتقام من الأمريكان على جرائمِهم ضدّ الشعب الياباني في الحرب العالمية الثانية حين قصفوا هيروشيما ونجازاكي بالقنابل الذرية بلا أيّ داعٍ أو أيّة ضرورةٍ عسكرية اللّهم إلّا الإجرام والوحشية. وعلى الفور، كانت اليابان هي أوّل مَن دخلت الحرب ضدّ أمريكا، وتبعتها كلٌّ من الصين وروسيا وفيتنام والفلبين ومعظمُ دول شرق آسيا كماليزيا وإندونيسيا وسنغافورة، وغيرهم، ولم يكن الإعلانُ الكوري الشمالي هو الدافعَ وراء تجمّع هذا العددِ المَهول من البشر الذي بلغ عددُه وقتَها ما يزيد عن ٤ مِليارات نسمة، أي ما يساوي تقريبًا نصفَ سكان كوكب الأرض بقدر ما هو كراهية شعوب الأرض لراعي البقر»المجرم»، وكانت أمريكا وحلفاؤها تخطّط للحرب كالآتي:

١- قيام إسرائيل وإيران بالتعاون مع القوّات الأمريكية الضخمة الموجودة بدول الخليج العربي بغزو واحتلال مجموعة الدول العربية للاستفادة من مواردها الضخمة وطاقاتها البشرية العملاقة، بالإضافة إلى موقعِها الإستراتيجي الشديد الأهمية.

٢- غزو روسيا وباكستان وتركيا والصين بمساعدة الهند وإيران، ثمّ محاصرة كوريا الشمالية إلى أن ينفذ مخزونها من صواريخ شبكة الدفاع الفضائي، ومِن ثمّ يتم اجتياحها.. علمت الدولُ العربية بهذه النوايا؛ فبادرت- وبالتعاون مع باكستان وتركيا بضرب إسرائيل والقوات الأمريكية المتمَركزة بالمنطقة ضرباتٍ قاصمة كبّدت إسرائيل خسائرَ مروّعة، وقضتْ على معظم القوات الأمريكية في المنطقة، وكانت المفاجأة مُذهلة لأمريكا وإسرائيل، بل وللعالم كلّه أنْ يتصرّف العرب بهذه الجرأة التي غابت عنهم لعدّة قرون من الخضوع والاستسلام. وعلى الفور، وكرَدّ فعلٍ انتقامي، أطلقت كلٌّ من أمريكا وإسرائيل والتحالفُ الغربي وابلًا من الصواريخ المحمّلة برؤوس نووية وأخرى بيولوجية وكيماوية استهدفتْ كلًّا مِن مثل مصر وسوريا والسعودية والعراق واليمن والسودان ولبنان والجزائر، بالإضافة إلى باكستان وتركيا. وهنا، وفّت كوريا الشمالية بوعدِها واستخدمتْ شبكة دفاعها الفضائي في إجهاض هذا الهجوم وإفشاله، وبالفعل لم يسقطْ أيّ صاروخ على أيّة دولة عربية. وهنا، أيقن

العربُ أنهم ليسوا بمفردهم وأنّ مصالح الحلف الآسيوي تتّفق مع مصالحهم. وعليه، وفي ١٦ مارس من عام ٢١٧٦م، اجتاحتْ جيوشُ كلٍّ من مصر والسودان وليبيا والعراق وسوريا ولبنان والأردن؛ إسرائيلَ بقوّات ضخمة قدّرت بنحو ثلاثة ملايين جندي؛ ٨٠٪ منهم مصريّون وسوريّون، واحتلّوا تلّ أبيب في أقلّ من ستّ ساعات، وقام الجيش المصري وقتَها بإبادة القوّات الإسرائيليّة حتى آخر جندي، والتي كانت تقدّر بحوالي مائتي ألف جندي، واسْتولت القواتُ العربية على المفاعلات النووية الإسرائيلية، وكانت أربعةَ مفاعلات عملاقة، وعلى عددٍ ضخم من الرؤوس البيولوجية والكيماوية، وعلى عددٍ كبير من القنابل النوويّة قدّرت وقتَها بـ١٥٠ قنبلة. وفي نفس العام، وفي القدس المحرّرة، أعلن العربُ عن قيام دولتِهم الموحّدة تحت اسم «الولايات المتحدة الإسلامية» وعاصمتها مدينة «القاهرة»، وتطبيق الشريعة الإسلامية كدستورٍ للدولة، وتمّ إنشاءُ جيش إسلامي موحّد يقدّر بحوالي ١٥ مليون جنديّ، ولأوّل مرة أصبح العرب يمتلكون أسلحةً نووية وجيشًا مهولًا، والأهمّ من ذلك كله أنّهم أصبحوا يمتلكون إرادتهم.

كانت الحربُ بالنسبة للعرب قدِ انتهت عند هذا الحدّ، ولكنّهم وكالتزام أخلاقي ظلّوا مُعلنين حالة الحرب ضدّ أمريكا وحلفائها دونَ اشْتراك فعليّ في المعارك، ولم يكن التحالفُ الآسيوي يريد أكثرَ من ذلك، وفي ١٦من ديسمبر من عام ٢١٧٦م، وهو عام انتهاء الحرب قامَ الحلفُ الآسيوي بضربِ العواصم الأوروبية المتحالفة مع أمريكا ضرباتٍ نوويةً وجرثومية وكيماوية شرسة تسبّبت في فظائع وقتلى بالملايين، في حين قام الجنرال القومي الياباني هاشيموتو بتوجيه ضربةٍ نوويّة انتقامية لواشنطن ونيويورك وكاليفورنيا، واجتاحت جيوش التحالف الآسيوي بعد ذلك الأراضي الأمريكية، وقسّمتها فيما بينها، وقام الجيشان؛ الكوري والياباني، بارتكاب مجازرَ وفظائع لما تبقّى من القوات الأمريكية، في حين بدا الرّوس والصينيّون أكثرَ تعقّلًا، وكانت ولاياتُ الشمال والجنوب مِن نصيب الروس، بينما استولى الكوريّون على ولايات الشرق والغرب، في حين كانت ولاياتُ الوسط الأمريكي مِن نصيب اليابانيّين والصينيّين. وفي هذه الأثناء، ومنذ قيام دولة الوحدة العربية عام ٢١٧٦م، انتهجَ العرب سياسةَ عزلةٍ وانغلاق

استمرّت ٢٧عامًا حقّقوا فيها معدلات إنتاج مَهولة على الصعيد الزراعي والصناعي والعسكري بعد أن أصبحت مواردُهم ومقدراتهم في حوْزتهم لأوّل مرة، واستطاع العلماءُ العرب أن يتوصّلوا لتكنولوجيا تصنيع منظومةِ الرّدع الصاروخي الفضائي في أقلّ من ثلاث سنوات من قيام دولة الوحدة. وفي عام ٢١٩٦م، استطاع العلماءُ العرب أن يطوّروا العديدَ من أوجه التطبيقات الصناعية لأشعة اللّيزر في مختلف المجالات، وخصوصًا المجال العسكري، هؤلاء العلماء الذين طالما ذُبحوا في الماضي على يدِ أجهزة المخابرات الأمريكية والإسرائيلية، ثمّ بدأ العرب بعد ذلك ينفتحون على العالم وقضاياه، وقد أخذوا على عاتقهم الدفاعَ عن المسلمين في كلّ مكان في العالم، وظهر ذلك بوضوح في أبريل من عام٢٢٠٢م وفي أمريكا المقسّمة بين روسيا واليابان والصين وكوريا، وفي إحدى ولايات الشمال التّابعة للسيطرة الروسية أرادَ الروسُ إزالة أحدِ المساجد الكبيرة في إطارِ إنشاءِ بعض التجمّعات الصّناعية للمهاجرين الرّوس القادمين من أوكرانيا وجورجيا. وهنا، طالبت وزارة الخارجية الإسلامية بالتوقّف عن هدمِ

المسجد وتحسينِ معاملة العرب والمسلمين في المناطق الخاضعة للسيطرة الروسية، وهو ما اعْتبره الروس تدخلًا في شئونهم الداخلية، وردّوا على ذلك بهدم المسجد، ولم يكتفوا بذلك، بل عقد التحالف الآسيوي (الكوري، الروسي، الياباني، الصيني) اجتماعًا طارئًا بناءً على طلب روسيا للردّ على التدخل العربي في شئونهم، وقرّروا طردَ العرب والمسلمين من جميع أنحاء أمريكا ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم، وعلى الفور أعلنت الولايات المتحدة الإسلامية حالةَ التعبئة العامة في صفوف قوّاتها المسلحة، والتي ستَسْتخدم- ولأوّل مرة- سلاح الليزر في تاريخ الحروب، كان التحالف الآسيوي يعتقد أنّه القوى العظمى الوحيدة في العالم، ومِن ثمّ بادروا بقصف الولايات المتحدة الإسلامية بوابلٍ من الصواريخ العابرةِ للقارّات والتي تحمل أسلحةَ دمارٍ شامل وإبادةٍ جماعية، وبات العالمُ ينتظر حربًا عالميّة رابعة، ولكنه ذُهل حينما رأى على شاشات التليفزيون، وفي جميع وكالات الأنباء العالمية أشعةَ الليزر تنطلق من طول البلاد العربية وعرضها، وتنسف هذا الوابل الضخم من الصواريخ الآسيوية في الجو قبل أن

يصل للأرض دونَ أن يفلت صاروخٌ واحد، وازداد العالم ذهولًا حين رأى دباباتٍ ومقاتلاتٍ وقطعًا بحرية ومدمراتٍ وغواصات كلّها تستخدم أشعة الليزر في ضرب أهدافها بدلًا من القذائف والصواريخ. طفرة مذهلة أحدثتْ فجوةً واسعة بين العرب وباقي الأمم تقدّر بنحو قرْنين من التقدّم العلمي لصالح العرب استطاعوا أن يحقّقوها فقط في أقلّ من ثلاثةِ عقود من توحّدهم، وتوجّهت حاملاتُ الطائرات العربية نحو القارة الأمريكية، وقامت المقاتلاتُ والقاذفات والدبابات والقطعُ البحرية والغواصات بضرب قوّات التحالف الآسيوي، واجتاح مليونَا جنديّ عربي مُزوّدين ببنادق الليزر القارةَ الأمريكية، واستسلم مئات الآلاف من قوّات التحالف الآسيوي حين أدركوا أنّ التصدّي للقوات العربية هو الانتحارُ بعينه، وتمّ طردُهم وإجلاء رعاياهم في إطار اتفاقيّة الاستسلام والجلاء التي وقّعتها معهم الولاياتُ المتحدة الإسلامية. وفي خلال ثلاثة أشهر مِن انْتهاء العمليات العسكرية كان يوجد ٣٥ مليون عربي استوطنوا أمريكا، و١٥ مليونًا قد استوطنوا كندا، و٩ ملايين بالمكسيك، وخضعت

هذه الدول لسيطرة الحكومة المركزية بالقاهرة، وبعد هذا الانتصار الساحق قرّرت القيادة العربية وقتَها إنشاءَ الجيش الإسلامي الرابع (كتائب الصدّيق أبي بكر) وكان يقدر بنحو مليون جندي، فضلًا عن خمسِ حاملات طائرات وسبعِ غواصات، وعشر قطعٍ بحرية، ومدمّرات انتشرت كلّها فيَ المحيط الهادئ لحماية السّاحل الأمريكي بعد أن أصبح ولايةً إسلامية. وكان مقرُّ قيادة هذا الجيش في العاصمة السابقة «واشنطن» التي أصبحت تُعْرف بـ «الدرة»، وأيقنَ العالم أنّ الولايات المتحدة الإسلامية أصبحت القوةَ العظمى الوحيدة في العالم، وتأكّدوا تمامًا- بما رأوه مِن انتصارات ساحقة وآلة حرب لا يستطيع البشر الوقوفَ في وجهها- أنّ المسلمين أصبحوا، وإنْ شئنا الدقةَ قلنا «رجعوا»، الأسيادَ الجُدد للعالم، وشجّع ذلك المسلمين في كلّ مكان في العالم على التوحّد فيما بينهم، وطلب الحماية والدّعم من الولايات المتحدة الإسلامية؛ ففي عام ٢٢٠٣م قامت كلٌّ من (كازخستان، أوزبكستان، طاجكستان، أذربيجان، تركمانستان، قرقستان) بالوحدة مكوّنين دولةً كبيرة غطّت مساحتُها أكثرَ من نصف مساحة

آسيا، وأطلقوا عليها (ولايات آسيا الإسلامية)، وطلبوا الوحدةَ مع الولايات المتحدة الإسلامية. وعلى الفور لبّى رئيس الولايات المتحدة الإسلامية هذا المطلبَ، وأرسل قواتٍ ضخمةً تقدّر بنحو مليون جنديّ لحماية هذه الدولة الناشئة من أي اعتداء روسي، وكانت هذه القوات- بالإضافة إلى القوات المسلحة لهذه الجمهوريات السوفيتية السابقة- هي الجيشَ الإسلامي الخامس بآسيا، والذي أطلق عليه (كتائب سعد بن أبي وقّاص) ثمّ أسرع مسلمو الشيشان وداغستان بطلب تدخّل الولايات المتحدة الإسلامية لتحريرهم من الاحتلال الروسي الذي دامَ لعدّة قرون ذاقت فيها تلك الشعوب الويلاتِ علي يد الشيوعيّين الروس، وبالفعل قام قائدُ الجيش الإسلامي الخامس بآسيا بإلقاء بيانٍ محذّرًا فيه الروس بأنّهم إنْ لم ينسحبوا من هذه الأراضي الإسلامية في غضون ثلاثة أيام؛ فإنّ الجيش الإسلامي الخامس سيقوم في اليوم الرابع بغزو موسكو. ولم ينتظرِ الروس مُهلة الثلاثة أيام، بل انسحبوا في أقلّ من يومين. وبذلك انضمّت كلٌّ من جمهوريات الشيشان وداغستان وأنجوشيا إلى ولايات آسيا الإسلامية، وكانت

منطقة جنوب شرق آسيا، بالإضافة للهند والصين، مناطقَ اضطهاد وتنكيلٍ بالمسلمين؛ ففي الهند يوجَد مسلمو كشمير، وفي الصين مسلمو تركستان، وجنوب الفلبين المسلم، والاضطهاد والقتل الجماعي للمسلمين في تايلاند وبورما وكمبوديا؛ ولذلك قرّر الجيشُ الإسلامي الخامس التدخّل والدفاعَ عن المسلمين في هذه المناطق. وفي نفس العام، اجتاح الهند والصين ودول جنوب شرق آسيا بلا مقاومة تُذكر في حين دخلَ أكثر من ٩٠٪ من اليابانيّين والكوريّين في الإسلام، ثمّ انضمّت بعد ذلك كلّ مِن إيران بعد الثورة السّنّيّة التي قامت بها، وأفغانستان وباكستان وإندونيسيا وماليزيا وبقية دول آسيا إلى الولايات المتحدة الإسلامية، وبذلك خضعت قارة آسيا بأكملها إلى الحكم الإسلامي المباشر، وشجع ذلك كلًّا من جمهوريات تركيا والبوسنة والهرسك ومقدونيا وكوسوفو وألبانيا أنْ تحذو حذْوَ مثيلاتها الآسيوية، وأنْ تتوحّد مكوّنة ما أطلقت عليه (ولايات أوروبا الإسلامية)، وطلبوا هُم أيضًا الانضمام للولايات المتحدة الإسلامية، وكان الردّ فوريًّا بالقبول والتّرحاب، وأرسلوا قواتٍ ضخمةً كانت

تقدّر بنحو مليونيْ جنديّ إلى هذه الولايات، وأنشئوا الجيش الإسلامي السّادس بأوروبا، والذي أطلقوا عليه (كتائب خالد بن الوليد)، وبعد ذلك بنحو ثلاثة أشهر، قام الجيش البوسنيّ- وكان أحدَ فيالق الجيش الإسلامي السّادس- باجتياح جمهوريّات صربيا والجبل الأسود وكرواتيا، وقاموا بإبادة نحو مليونيْ جندي نظامي، وكان هذا العددُ الضّخم يمثّل مجموعَ القوات النظاميّة لهذه الجمهوريات، والتي كانت تُعرف في السابق بجمهورية «يوغسلافيا»، وجاء هذا الانتقام العنيف من قِبَل الجيش البوسني نظرًا للمجازر والمذابح التي ارتكبها الصّرب والكرْوات لمسلمي البوسنة والهرسك على مدار عدّة قرون. وبعد ذلك التاريخ بعامَيْن، حدثَ تمرّد في هذه الجمهوريّات بدعم سرّي من روسيا واليونان، فما كان من الجيش الإسلامي السادس (كتائب خالد) إلّا أن اجتاحَ أثينا في أقلّ من نصف ساعة، وتزامن ذلك مع اجتياحِ الجيش الإسلامي الخامس بآسيا لموسكو؛ حيث قام الفيلق الشيشاني وقتَها بإبادة القوات الروسية انتقامًا لعهود طويلة مِن القتل والتعذيب على يدِ الجيش «الأحمر»، وبذلك دانت أوروبا

بأكْملها للحكم العربي المسلم، في حين حصلت كلٌّ من بريطانيا وألمانيا وفرنسا (باستثناء الجنوب) وإيطاليا والنمسا وبلجيكا ودول إسكندنافيا (النرويج، السويد، الدنمارك) على حكمٍ ذاتيّ مشروطٍ بالآتي:

١ـ تسريح جيوش تلك الدول.

٢ـ تمركُز وحدات من الجيش الإسلامي السّادس بها.

٣ـ تقوم تلك الدول بدفع ٢٥٪ من دخلها القومي للولايات المتحدة الإسلامية مقابل حمايتها من أي اعتداءٍ، وتمثل تلك النّسبة ما كانت تنفقُه هذه الدول على تسليحها.

وطلبتْ إسبانيا والبرتغال وقتَها المعاملةَ بالمثل، إلّا أنّ العرب رفضوا ذلك وضمّوهما إليهم، وأعادوا إليها اسمها العربي «الأندلس»، وعادت كما كانت من قبْل ولاية عربية إسلامية، ثمّ منحتِ الولايات المتحدة الإسلامية حكمًا ذاتيًّا لدول أمريكا الجنوبية وأستراليا بنفس الشروط التي حصلت بمقتضاها دولُ أوروبا الخمسُ على حكمها الذاتي، وتمرْكَزت بهذه البلاد وحداتٌ من الجيش الإسلامي السّابع بأمريكا

الجنوبية (كتائب الفاروق عمر)، ووحدات من الجيش الإسلامي الثامن بأستراليا (كتائب على بن أبي طالب). وبنهاية عام ٢٢٠٥م، كان المسلمون يحكمون العالَم بقاراته الستّ، وكان حكمًا عادلًا اتّسم بالاستقرار والرّخاء.

***

٤- الحبّ المُستحيل..

أخذ جنرالُ الأمن القومي السابق الجنرال أمين محفوظ يفحصُ بعناية شديدةٍ ما رصدته كاميراتُ المراقبة المنتشرة بكلّ مكان بفيلّته بحيث رصدت كلّ ثانية أمضاها شهاب بمفرده ليلةَ أمس حين تركه هو وحفيدتُه وانصرفا، فلم يكنْ رجل كهذا ليثقَ بشهاب مطلقًا، وهو ذلك الشخص الغريب الغامض الذي يسعى وراءه جهازُ الأمن القومي، وإن كان الرجلُ بحاسّته الأمنيّة لا يراه مصدرَ خطرٍ أو تهديد، وها هي التسجيلاتُ تظهر شخصًا لا يثير أيّ شكوك على الإطلاق، وقد انْهمك في قراءة أحدِ الكتب، ثمّ تركه وأخذَ يصلّي بخشوع واضح صلاةَ الفجر، ثمّ يعود للقراءة، وقد بدا التّأثر على وجهه بشكلٍ واضح حتى غلبه النوم وهو جالس على كرسيه. كانت سلوى في هذه الأثناء تشاهد كلّ ذلك مع جدّها، وكانت لا تعلمُ لماذا يخفقُ قلبها على هذا النحو! وهنا، شعر شهاب بأيدٍ حانية تربتُ على كتفه بعد أن غلبه النومُ ليلة أمس وهو يتجوّل بين سطور ذلك الكتاب.. كتاب التاريخ،

والتاريخ ماضٍ، ولكنّه بالنسبة له لم يكن أبدًا كذلك؛ فلقد كان كلّ حرفٍ قرأه هو في واقع الأمر مستقبلًا... مستقبلًا بعيدًا. وقد استطاع أن يعرف الكثيرَ والكثير عن هذا العصر، وعن الولايات المتحدة الإسلامية، وعن مقدار القوّة الهائلة التي يتمتّع بها العربُ والمسلمون. التفت شهاب للجنرال أمين الذي بادرَه بنظرات بها الكثير من الودّ على غير العادة هذه المرّة، ثمّ أردف قائلًا، ولازالت يدُه معلّقة على كتفه وهو يقول:

ـ دعني أصارحك يا فتى، لديّ إحساس قوي بأنك شخصٌ جيد، ولكن في نفس الوقت لدي هواجسُ وشكوكٌ لا أستطيع تجاهلها، فقط أنت مَن يستطيع حسمَ الموقف.

همّ شهاب بالتحدّث، غير أنّ سلوى التقطت الكتابَ ووجّهت حديثَها له:

يبدو أنّك مغرَم بالتاريخ لدرجةٍ تجعلك تقضي طيلةَ الليل تقرأ حتى يغلبَك النوم، ولا تشعر بنا عند عودتنا.

شهاب مخاطبًا إيّاها بودّ: إنْ كان تاريخًا مبهجًا كهذا؛ فلست مغرمًا به وحسب بل إنّي أعشقه.

بدتْ كلماته لها مُبهمة ممّا دفعها لأن تقول باستغراب وهي تنظر للكتاب: «مُبهج»!! وهل حربٌ راح ضحيّتها الملايين أمرٌ مبهج!؟

شهاب: بل إنّ المُبهج هو زوال إمبراطورية الشرّ الأمريكية من الوجود، وحلم الوحدة العربية الذي تحقّق أخيرًا بعد أن كان في زمن ما حلمًا أسطوريًّا خرافيًّا، بل إنّه في بعض الفترات المؤلمة من تاريخنا عجز الكثيرُ حتى عن مجرّد الحلم بهذا الحلم.

نظرتْ سلوى إليه، وقالت في مرح:

ـ يبدو أنّك مغرم بالسياسة أيضًا.

ردّ عليها مداعبًا:

ـ يبدو أنّه لا يوجد طعامٌ في هذا البيت.

وهنا، لم تتمالك نفسَها من الضحك، وابتسم الجنرال أخيرًا منذ أن رأى شهاب لأوّل مرة ليلة أمس. وقالت ولازالت ابتسامتُها العذبة تعلو وجهَها:

ـ حالًا سيكون الطعام جاهزًا.

ثمّ ذهبت للمطبخ وقلبُها يكاد يرقصُ فرحًا لسببٍ ما.. سببٍ غامض... مجهول لا تعرف ماذا يكون، لكنّها تعرف جيدًا أنّها الآن في منتهى السّعادة، لم تستغرقْ كثيرًا من الوقت في إعداد بعضِ الوجبات السريعة لتعود لتجدَ جدّها ينظر لشهاب بكمٍّ هائل من الدّهشة، وقد اتسعت حدقتا عينه، وقطّب حاجبيه، في حين بدا شهاب رابطَ الجأش وتبادل كلاهُما النظرات لبرهةٍ قبل أن تقطع سلوى ذلك كلّه قائلة بقلق: ما الأمر؟

وكان شهاب قد قصّ على الجنرال قصتَه بوضوح وشكلٍ مُباشر، وكما توقّع.. فالرجل يبدو أنّه لا يصدّقه.. لا يصدّقه بالمرّة.

الجنرال أمين: لا شيء يا حبيبتي.

ثمّ انشغل في إجراء بعض الاتّصالات، وفي هذه الأثناء نظرت لشهاب والقلقُ والحيرة مع كمٍّ كبيرٍ من الإعجاب يعلوان وجهَها وهي تقول:

ـ تبدو لي كأحد الأدباء أو السياسيّين، أو....

قاطعَها بقوله: أو ماذا أيضًا؟ يكفي ذلك فلستُ شيئًا من هذا على الإطلاق.

نظرتْ إليه بتعلّق وهي تقول: إذًا، مَن تكون؟

شهاب، وقد حاول أن يغيّر دفة الحديث كي يهربَ من الإجابة:

ـ ألم تخبريني أمس أنّ موضوع السبق الصحفي لم يعدْ يهمّك الآن؟ نظرتْ إليه بنظرات يملؤها العتاب، ولم تحرْ جوابًا. وهنا، شعر شهاب أنّه ما كان يجب أن يقول ذلك، وأسرع لاسْترضائها قائلًا:

ـ أعدكِ بأنْ أخبرك بكل شيء عنّي فورَ أن تسمح الظروف بذلك، أمّا الآن فعندي ما هو أهمّ، وأرجو أن تساعديني على تحقيقه، و..... قاطعتْه بلهفة، وقد عادت إليها بهجتُها بعد كلماته الأخيرة: إنّني على أتمّ الاستعداد، فقط قلْ لي بماذا أستطيع أن أساعدَك، وتأكّد أنّني لن أتردّد.

شهاب: هل تستطيعينَ مساعدتي في العمل معكِ بالجريدة؟!

بدا لها طلبًا مفاجئًا، ولكنه زادَ من حجم سعادتها، وظهرَ ذلك بوضوح على وجهها وهي تقول:

ـ يبدو أنك كما أخمّن وأراهنُ أنّك لن تخرج عنْ كونك أديبًا أو مفكّرًا أو ربما شاعرًا.

ابتسم شهاب، وأردف قائلًا:

ـ إذًا، أنت ترحّبين بالفكرة.

سلوى: سأتحدّث فورَ وصولي للجريدة مع رئيس التحرير عن حاجتي لمَن يساعدني في التّحقيق الصحفي الذي أعمل به، وسأزكّيك عنده، وأنا متأكّدة أنه لنْ يمانع.

بدت على شهاب مظاهرُ السعادة وهو يقول بحماس: إذًا، هيّا بنا للجريدة.

سلوى: هل ستأتي معي!؟

شهاب: بالطبع.

سلوي: ولكنْ أنسيت أنّ هناك مَن يبحثون عنك؟ وأنـ.....

قاطعَها بقوله: لن أبقى مختفيًا للأبد وأتركَ ما جئتُ من أجله؛ فالوقت ليس في صالحي، كما أنّني لم أفعل شيئًا أخشى منه.

وهنا، أحسّ أنه بدأ يفقد حظرَه معها، وبالفعل وكما توقّع اندفعت تسأُله: وما الذي جئتَ من أجله؟ ومِن أين جئت؟ ولـ.....

قاطعها بلطف: سلوى، أنسيت ما اتّفقنا عليه، وأنّني سأشرح لك كلّ شيء في الوقت المناسب؟

سلوى: وهو كذلك يا شهاب، هيّا بنا.

وغادرا المكان بعد أنْ ودّعت جدَها، والغريب أنّه سمح لها بالذهاب مع شهاب. لم يشعر شهاب بالارتياح لذلك، ولكنه لم يكن لديْه أيّ خيارات أخرى، وانطلق مع سلوى متوجّهين لسيارتها بعد أن عبرَا حديقة الفيلّا، وخرجا للشارع المليء بأشجار النّخيل العالية التي اصطفتْ على جانبيه؛ حيث منعتْ عنه ضوء الشمس بحيث باتَ شارعًا مغلقًا من أعلى بهذا السقف النباتي، وبينما هُما متوجّهان كي يستقلّا السيارة

إذ تنشقّ الأرض عنْ خمسة أشخاص ضِخام البنية، يبدو العداء واضحًا على ملامحِهم، ولم يضيعوا الكثيرَ من الوقت، وإذْ بأحدهم يخاطب «شهاب» بلهجةٍ سوقيّة قائلًا وهو يشير لسلوى: اتركها وانجُ بنفسك أيّها الوسيم.

وفوْر سماع سلوى لذلك انْتابها الرعبُ والهلع، وأخذت تنظر لشهاب وقد استبدّ بها الذعرُ، فها هُم خمسةُ أشرار يحاصرونهم في شارع جانبي يندرُ مرورُ أحدٍ به، والأهمّ مِن ذلك أنّ شبكة الرّدع ستقفُ محايدةً، ولن تتدخّل. بدا شهاب رابطَ الجأش وقد أخذ يداعبُ سلوى قائلًا: يبدو أنّ لدينا رفقة.

نظرتْ إليه سلوى، والرعبُ يطلّ من عينيها، وهى تقول همسًا وكأنّها تخاف أنْ يسمعها هؤلاء الأشقياء: ماذا سنفعل يا شهاب؟!

شهاب: لا تقلقي.

ثمّ أدخلها سريعًا لسيارتها، وبقفزةٍ أذهلتْ هؤلاء الخمسة أصبح بينهم تمامًا بعد أنْ كانوا يبعدون عنه بنحو ثلاثةِ أمتار

تقريبًا، ولم تكدْ قدماه تستقرّان على الأرض حتى غاصتْ قدمُه اليسرى في معدةِ أحدهم قبل أن تطيحَ به وتخرجُه نهائيًّا من الصراع، لكمةٌ خطّافية بدا شهاب من خلالها كأحدِ أبطال الملاكمة المحترفين، ثمّ مالَ بجسمه إلى الوراء متفاديًا لكمةَ أحدهم، ثمّ هوى بسرعة البرقِ على عنقِه براحةِ يده بضربةٍ شديدة الإتقان مِن ضربات الكاراتيه أفقدتْه وعيَه على الفور، وحين حاول أضخمُهم أن يشلّ حركته ويقيّده مِن الخلف تركه شهاب يعتقد أنه نجحَ في ذلك، ثمّ مال برأسِه للأمام، ثمّ عاد ليدفعَها بقوة للخلْف لترتطم بأنفه، وتتدفّق الدماءُ منها بغزارة، وقد وضع يديْه عليها وأخذ يصرخُ مِن شدّة الألم إلّا أنّ «شهاب» لم يمهلْه؛ فقد دار بجسمه مرتكزًا على إحدى قدميه، ودفع الأخرى بقوّة في بطن هذا الضخم في ركلةٍ خلفيّة معقّدة من ركلات الكاراتيه أطاحتْ به بعيدًا عدّة أمتار عن أرض المعركة، ولم يتبقّ إلّا اثنان، ولم يكونا بأسعدِ حالٍ مِن سابقيهم؛ فلقد انقضّ عليهم شهاب بوابلٍ من اللّكمات والرّكلات المُتقنة الشّديدة التّعقيد بسرعة بدتْ لهؤلاء المساكين خرافيّة. وفي خلال عدّة ثوانٍ كان قد أطاحَ

بهم بعد أنْ جعلَ أحدَهم يبتلع نصفَ أسنانه، والآخر لم تعدْ تصلح معدتُه للعمل مرة أخرى، كانت سلوى تراقبُ ما يحدث بذهول، ولم تكنِ الوحيدة التي أصابها هذا الذهول؛ فلقد كان علاء في مكانٍ ما يراقبُ ما يحدث، وقد كاد يجنّ جنونُه ممّا رأى.

أسرع شهاب وركبَ السيارة في انتظار أنْ تنطلق سلوى، لكنّها أخذت تحدقُ به بمزيج من الانْبهار والإعجاب، إلى أن انْتزعها ممّا هي فيه بقوله ممازحًا: هل تنتظر سيدتي أحدًا ما؟

وهنا، أدارت سلوى محركَ سيّارتها، وانطلقت لا تعرفُ إلى أين تذهب بعد أن أفقدها الانفعال والتأثرُ كاملَ تركيزها.. شعورٌ جارف ملكَ عليها نفسَها بحيث باتتْ عاجزةً عن تحويلِ بصرها عن شهاب الذي أخذ ينظر إليها هو الآخر برفقٍ وهو يقول: هل لازلتِ خائفة؟

سلوى وكأنها تعيشُ في حلم جميل لا تودّ أن تستيقظ منه، بحيث باتت الكلماتُ تناسب منها بتلقائية، وهي تتحدّث بإحساس مُفعم بالسعادة والنشوى: وممّ أخاف وأنا معك!؟

شهاب: وماذا لو كنتُ أنا الذي أشعرُ بالخوف؟

نظرتْ إليه بكلّ انبهار الدنيا، وقالت: لا أعتقد أنّك عرفت الخوف يومًا.

شهاب: مَن قال ذلك؟ نحن بشر، وما دمنا كذلك فلا بدّ أن نشعر به، وصدّقيني لقد شعرتُ به اليومَ يهاجمني بقوّة خشيةَ أن يصيبك مكروهٌ. نفذت تلك الكلمات إلى قلبها مباشرة، وشعرت أنها تحلّق في فضاء رحبٍ لانهائي، وقد اختفى الغموض، وتلاشتِ الشكوك، وأصبحت على يقينٍ الآن أنها تحبّ هذا الرجل. وبغتة، ظهر الحائلُ الزجاجيّ الدّاكن ليفصل بينهما مرّة أخرى، ويبدو أنه تعاطف مع هذا الحبّ الطاهر البريء، وتأخّر لبضع ثوانٍ عن الظهور، ولم يمرّ وقتٌ طويل قبل أن تردف قائلة: ها قدْ وصلنا، وسنتوجّه مِن فورنا لرئيس التحرير.

شهاب: أفضّل الانتظار في مكتبك حتى تعودي.

سلوى: كما تشاء.

ثمّ توجّهت لرئيس التحرير بعد أن تركت «شهاب» بمكتبها، ولم يستغرقِ الأمرُ الكثيرَ من الوقت مع رئيس

التحرير، فما هي إلّا بضع دقائق حتى شكرتْه على موافقتِه في أن يعمل شهاب معها في تحقيقها كأوّل عمل له كمحرّر صحفي بالجريدة هذا التحقيق المزمَع عمله عن الدكتور صادق عز الدين ومشروعِه المثير. وهي في طريق عودتها لمكتبها حيث يوجد شهاب، ودّت لو أطلقت ساقيها للرياح لتلقاه، وتخبره بما فعلت، والفرحةُ والسعادة قد تمكّنت منها لدرجةِ أنّها لم تنتبِه أو تلتفتْ لزميلاتها المقرّبات اللّاتي أخذنَ في إلقاء التحيّة عليها دونَ جدوى، فلقد كانت في عالم آخر.. عالم من الأحلام الورديّة بطبيعة الحال، وبينما الوضعُ هكذا إذْ بمَن ينتزعها انتزاعًا من ذلك كلّه بعد أن استوقفَها محاولًا التحدّث إليها، وكان علاء سالم الذي أولُ ما أن رأتْه حتى تذكّرت على الفور أمرَ المهاجمين الخمسة، وبالرّغم من رقّتها البالغة إلّا أنّها انْفجرت تصرخُ في وجهِه قائلة: اسمع يا هذا، إنْ لم تتوقّف عن أعمالك الصبيانيّة تلك؛ سأجعل «خطيبي» يحطّم رأسَك كما فعل بمَن أرسلتهم.

ثمّ تركتْه وانصرفت مُسرعة بعد أنْ نزلت تلك الكلماتُ عليه كالصاعقة، وكادَ جسدُه الفولاذي الضّخم أن يهوي

أرضًا بعدما ترنّح مِن فعْل تلك الكلمة «خطيبي»، ألقتها في وجْهه في محاولةٍ منها أن تجعله يكفّ عن مضايقتها، وأنْ يتخلّى عن أوهامه، أو هكذا حاولت أن تقنعَ نفسها، ولكنّها- ومن أعماقها- كانت تتمنّى، وبقوة، كما لم تتمنّى شيئًا مِن قبل، أن تصبح تلك الكلمة واقعًا وحقيقة، ودخلت لمكتبها حيث كان شهاب جالسًا يتصفّح إحدى الجرائد، وألقت بنفسِها على أول كرسي قابلته، وقد بدا على وجهِها الحنق والغضب، ولاحظ شهاب ذلك فخاطبَها قائلًا: ما الأمر يا سلوى؟

سلوى: لا شيء، بعض المشاكل المعتادة.

نظر إليها قائلًا: أهي بسببي؟ ألم يوافقْ رئيس التحرير على هلـ...

قاطعتْه قائلة:

ـ لا على الإطلاق.

ثمّ أخرجتْ من حقيبتها بطاقة هوية «كارنيه» العمل بالجريدة، وأعطتْه لشهاب الذي أخذَه منها دونما اكتراث،

ودون أن ينظرَ حتى إليه، ثمّ أردف قائلًا: إذًا ماذا بك!؟ هل في الأمر أسرار؟

وهنا ابتسمت سلوى قائلة:

ـ أسرار! لقد استحوذت أنتَ على أسرار الكون، ولم تُبقِ لبقية البشر ما يخفونه.

ابتسمَ شهاب وهو ينظر إليها قائلًا: بالرغم من أنّني في وضع لا يمكّنني من مساعدة أحد إلّا أنّني لن أتردّد في فعل أي شيء يز....

قاطعتْه بودّ: لست في حاجة لقول ذلك بعد ما رأيته بعيني اليوم وأنت تدافع عني بشجاعة مُنقطعة النظير، وإن كان الأمر يتعلّق بحادثة اليوم.

شهاب: كيف؟

بدأت سلوى تقصّ عليه حكايتها مع علاء وهيامَه بها وإبعادَها المستمر له ومحاولاتِه التي لا تنقطع، والتي كانت حادثةُ اليوم هي إحداها، وظلّت تروي وشهاب مُنصتٌ، وما

أنِ انتهت حتى أردف شهاب قائلًا وقد ارتسمتْ على وجهه ابتسامةٌ عذبة: معه حقّ.

سلوى: ماذا!!

شهاب: أقول إنّ نار الغيرة تأكل قلبَ هذا العاشق، ونداءُ القلوب أقوى بكثيرٍ من نداء العقل.

سلوى: ولكنّني، كما قلت لك، لا أبادلُه أيّة مشاعر، وما فعله اليوم من تحريض هؤلاء الأشقياء يعدّ عملًا إجراميًّا يعاقِب عليه القانون بشدّة.....

قاطعها مداعبًا: دعكِ مِن هذا كله، ولا تقلقي بعد الآن؛ فإن حمايتك أصبحتْ مسئوليتي بعد أنْ صرنا خطيبين!!

ضحكت سلوى، وارتسمت على وجهها ابتسامةٌ شديدة الصفاء، وهي تقول: لكنّك خطيبي بالإكراه بعد أن ورطْتُك في ذلك.

نظر إليها شهاب قائلًا بودّ:

ـ مَن يعرف؟ فلو كنّا في زمان آخر ومكانٍ آخر لكنتُ أسعدَ مَن في الوجود بتلك الورْطة.

وهنا، احْمرّ وجهُها خجلًا على نحو مُلفت للنظر، وأخذت تحاولُ باستماتةٍ أن تخفي طوفانَ السعادة الذي غمرَه كيانها، وصمتتْ لبرهة إلى أن استطاعت أن تتمالكَ نفسها، ثمّ أردفت قائلة: والآن، هل عندك أيّ تصوّر للخطوات القادمة، ولا تنسَ أنه يوجد مَن يلاحقنا.

شهاب: نعم أعرف ذلك، ولذلك يجب أن نسرعَ ونقابل الدكتور صادق عز الدين بأسرع وقت.

سلوى: وهل تعرفه؟

شهاب: بالطبع ليست معرفة شخصية، ولكن لقد....

قاطعتْه قائلةً باهتمام:

- المهمّ هل تعتقد أنّه يستطيع أن يساعدك؟

أردفَ شهاب قائلًا بحماس: إنّه الشخصُ الوحيد الذي يمكنه مساعدتي. تخلّت سلوى عن دهشتها، وأخفتها بداخلها، وتعلّق بصرُها به وهي تقول: وهو كذلك، هيّا بنا إذًا.

***

٥- الماضي والمستقبل..

انفجر الرائد صلاح بسيوني بالضحك، ثمّ أردف قائلًا وهو ينظر لصديقه الحميم: إذًا، فلقد فاز أحدُهم بقلب ليلاك.

هبّ علاء سالم واقفًا، والغضب والحنق يعصفان به، وهمّ بالانصراف قبل أن يبادرَ صلاح باللّحاق به وتهدئته قائلًا: هوّن عليك يا بطل، الأمر أبسط من ذلك بكثير، لا...

قاطعَه علاء ولازال الغضبُ والحنق يعلوان وجهه: لن تفهمَ أبدًا لأنّك بلا قلب، ولم تعرف في حياتك معنى الحب، و.....

قاطعه صلاح ساخرًا: الحبّ! يبدو أنك نسيت أنّنا أصدقاء منذ الطفولة، وأنّني أعرفك جيدًا، دائمًا ودومًا تتطلّع إلى ما هو بعيدٌ عن متناول يدك، وفور حصولِك عليه تملّه وتزهد فيه.

علاء، وقد ذهب عنه بعضُ غضبه وهو يقول بانفعال: أبدًا يا صلاح، الأمر ليس كذلك، إنّني بالفعل أحبّها، بل أعشقها عشقًا؛ بدليل أنّني عرفت الكثيرَ قبلها ولم يخفقْ قلبي لأحدٍ سواها، وقد حاولت مرارًا أن أنساها، وسافرت كثيرًا هنا وهناك، وأحرزت الكثيرَ من البطولات والألقاب، وتعلمُ جيدًا أنه بإشارةٍ من أصبعي أستطيعُ أن أحصل على حبّ العشرات مِن المُعجبات. وبالرغم من ذلك كلّه، فإنّني لم أنسَها ولو للحظةٍ واحدة، إنّك لو رأيتها لأدركـ....

قاطعه صلاح: إنّني لستُ بحاجة لأن أراها يا صديقي العزيز؛ فالنساء كلّهن تركيبةٌ واحدة إذا أهملتهنّ فسيسعون إليك، وإذا فعلتَ كما تفعل أنتَ الآن؛ فالنتيجة واضحة أمامي.

علاء: يا صلاح، افهمني إنّني لا أستطيع أن أصفَ لك حالتي منذ أن رأيتُ خطيبها المزعوم هذا..

ثمّ زادت حدتُه وانفعاله وهو يقول: إنّني أحترقُ يا صلاح... أحترق.

بلغ الأمرُ مع علاء مبلغَه، ولاحظ صلاح ذلك فأرادَ أن يغيّر دفّة الحديث إشفاقًا منه على صديق الطفولة، فأردف قائلًا: ولكن أخبرني يا علاء، ماذا تقصدُ بمزعوم وأنت تتحدث عن هذا الرجل الذي ظهرَ في حياة فتاتك؟ أليس خطيبَها بالفعل؟

علاء: بالطبع لا.

صلاح: ولم كلّ هذه الثقة؟

علاء: إنّني أعرف كلّ خطوة تخطوها في البيت والجريدة والشارع، وكلّ مكان تذهب إليه، إنّني أعرف كلّ أقاربها ومعارفها، حتى زملاءها في الدراسة أعرفُهم جميعًا، وهذا المزعوم ليس واحدًا مِن كلّ هؤلاء، إنّني لا أعرف كيف ظهرَ هكذا فجأة، وكأنّ الأرض انشقتْ عنه، لم أتمالك أعصابي وأنا أراه معها، وكدتُ أذهب إليه لألقّنه درسًا أمامها لكنّي أعرف جيدًا أن ذلك سيزيد الأمرَ سوءًا بيني وبينها، ولكنّني استعنتُ بخمسةٍ من أفضل لاعبي الكاراتيه والجودو والكونغ فو، ممّن

أعرف مقدارَ شراستهم وعنفِهم كي يلقّنوه درسًا ويبعدوه عن طريقها، إلّا أن العكس هو ما حدث، لقد رأيتُه بعيني وهو يطيح بهم كالإعصار، وكان يقاتل بيده العارية بشكلٍ مُذهل ممّا جعله يُفْقِد ثلاثةً منهم وعيَهم، ويحطم أنفَ الرّابع، ويخلع كتفَ الخامس، وكلّ ذلك في ثوانٍ معدودة، وبلا توقّف، كدتُ أن....

ثمّ بترَ عبارته فجأة، وأخذ يحدقُ بشيء ما بيدِ صلاح قبل أن ينتزعَه منه وسطَ دهشة الأخير الذي صاح قائلًا: ما الأمرُ يا علاء، ماذا بك؟ وكان علاء يحدقُ بدهشة فيما انتزعَه لتوّه من يدِ صديقه، كانت عبارة عن صورة، ولكنها ليست صورةً عادية، إنّها صورة من المُمكن أن تغيّر مسار التاريخ، لقد كانت صورةً لغريمه، لقد كانت صورةً لشهاب؟

***

بإحدى قاعات الاستقبال بمنزل الدكتور صادق عز الدين، جلس شهاب وسلوى في صمتٍ لبرهة قبلَ أن تأتي مديرةُ المنزل متحدّثة بصوت يخلو من الودّ موجّهة حديثها لهما: معذرة يا سادة، البروفسير لا يدلي بتصريحات صحفية منذ عام.

سلوى: ولكنّ الأمر هام، بل في منتهى الخطورة.

مديرة المنزل وقد بدتْ على وجهها ابتسامةٌ آليّة قبل أن تردف قائلة: نعمْ أعلمُ ذلك، فالأمر دائمًا يكون هامًّا وخطيرًا، ودائمًا تكون الإجابة واحدة.. البروفسير يعتذر.

كان شهاب صامتًا طول الوقت، وسلوى تحاول مع هذه السيدة العنيدة دونَ جدوى، ثمّ قطع حديثهما بغتةً قائلًا بهدوء وثقة: أرجو يا سيدتي أنْ تبلغي دكتور صادق أنّ الأمر يتعلق بمشروع التنقّل عبر الزمن.

مديرة المنزل: أرجوكم يا سادة، لا فائدة من كلّ.....

وهنا قاطعَها شهاب بحدّة مخاطبًا إيّاها بلهجة صارمة: هل تتحمّلين نتائجَ عدم تبليغ تلك الرسالة؟

وهنا ارتبكت السيدة بعضَ الشيء، ولم تجد أمامَ الثقة والهدوء اللتيْن يتحدّث بهما شهاب سوى الرضوخِ والاستسلام، وذهبت لتبلغ الرسالة، في حين نظرت سلوى لشهاب بدهشة، وهمّت بالتحدّث لولا عودة السيدة قائلة: البروفسير وافقَ على مقابلة السيد، ولكنْ بمفرده، اتبعني مِن فضلك.

نظرت سلوى إليه قائلة: ماذا ترى؟

شهاب: سأقابله بالطبع.

شعرت سلوى ببعض القلق وهو يمشي مع السيدة المتعنّتة إلى حيث يوجد دكتور صادق، ولكنها حاولت أن تقنعَ نفسها بأنه لا يوجد ما يستدعي القلق، وأنّ عالمًا كالدكتور صادق لا يمثّل أي خطر، وما إن دخل شهاب المكتب حتى أغلقت

السيدةُ الباب خلفه، وكانت حجرة المكتب من الداخل عبارةً عن مكتبة ضخمة يتوسّطها مكتب، وكان الرجل يبحث عن أحدِ الكتب في إحدى الجوانب قبل أن يردفَ قائلًا بعد أن استدار، ونظر إلى شهاب: إذًا أنت الرجلُ الغامض الذي يبحث عنه الجميع.

بدا شهاب رابطَ الجأش هادئ الأعصاب بالرغم ممّا فاجأه به دكتور صادق مِن معرفته بأمره، وقال بهدوء: نعم يا دكتور صادق، ولكن هل لي أسال كيف علمتَ بأمري؟

أشار دكتور صادق لخنصرِ يدِه اليمنى، وقد استقرّ به شيء ما يشبه الخاتم، وأردف قائلًا: هذا الجهاز رصدَ حالةَ نشاط أيوني بمعدّلات مرتفعة فوْرَ دخولك إلى هنا.

ثمّ نظر للجهاز المستقرّ بأصبعه، وكأنه يستعيد ذكرياته قائلًا: لقد قمت باختراع هذا الجهاز منذُ أكثر من ٤٠ عامًا، حيث كان مشروع تخرجي من كلية الفيزياء الضوئية.

ثمّ أشار لشهاب بالجلوس، واقترب منه، وبدأ يفحصه بنظراتٍ علمية ثاقبة، وقد قطّب حاجبيه وهو يقول: ما هي قصّتك يا فتى؟

شهاب: أجبني أنت أولًا يا دكتور، لماذا تخلّيت عن مشروعك؟

بدتِ ابتسامةٌ غامضة تعلو وجه الدكتور صادق بعد سؤال شهاب هذا، وأردف قائلًا:

- لأنّ سرعة الضوء غير متاحةٍ على الأرض على الأقلّ حتى الآن.

شهاب: وإنْ توفّرت؟

بدتْ ملامح الرضا والسرور على وجْه الدكتور صادق، وكأنّه يتوقّع ما سيقوله شهاب، ثمّ ضاقت حدقتا عينيه وهو يقول: إذا توفّرت سيتمكّن الإنسان من التنقّل عبر الزمن.

شهاب: ولماذا يفعل ذلك؟

دكتور صادق، وقد علت وجهَه ابتسامةٌ ماكرة وهو يقول: لنفس السببِ الذي أتى بك مِن حيث لا أدري.

وهنا، ابتسم شهاب هو الآخر، وبدأتِ الطمأنينة تعرفُ طريقها أخيرًا إلى نفسه وهو يقول: وهل سأحظى بالمساندة؟

دكتور صادق: هل عرف أحدٌ بأمرك؟ وتلك الفتاة التي أتيت معها، هـلـ...

قاطعَه شهاب: ليست تلك القضية يا دكتور، إنّ الوقت ليس في صالحي، ولقد بدأ ينفدُ فلم يتبقّ لي إلّا يومين قبل أن يتحوّل جسدي إلى طاقة وأتلاشى، بالطبع تفهمُ ما أقصد.

أومأ دكتور صادق برأسِه إيجابًا، وبدا أكثرَ تحمّسًا وهو يقول:

- نعم بالتأكيد أعلم ذلك، ولكن ما هو تصوّرك لنوع المساعدة التي أستطيع أن أقدّمها لك؟

شهاب: لا أعرف بالضبط، ولكنّني متأكد أن بعضَ تقنيات عصركم لو رجعت للماضي تستطيعُ أن تحقّق المعجزات،

وبالتأكيد هذا ما كنتَ تفكر فيه أثناءَ عملك بمشروعك الذي لم يكتمل.

دكتور صادق وقد بدا متأثرًا للغاية:

- حسنًا يا بني، ولكن يجب أن أعرفَ أولًا الكيفية التي تتنقلُ بها عبر الزمن حتى أحدّد كيفية المساعدة.

شهاب: بالله عليك يا دكتور، أخبرني أنت أولًا ماذا حدثَ لقوّات التحالف الأمريكي ـ الغربي التي تحرّكت سنة ٢٠٠٣م لغزو العراق؟

ولم يكدْ يسمع الرجل هذا السؤالَ حتى تهلّلت أساريره، وهو يقول بانفعالٍ بالغ: أبشر يا فتى، فإنْ كان هذا هو ما جئتَ من أجله فلقد نجحتَ في مهمّتك، و.....

قاطعَه شهاب وسأله بشوقٍ واضح: كيف يا دكتور؟ لقد هربت من بغداد وكانت تقصَف بوحشيّة، وكان هناك عشراتُ الآلاف من القتلى، وكانت الجثثُ والأشلاء تغطّي أرصفة الشوارع، والدمارُ والخراب في كلّ مكان، ولم....

قاطعَه دكتور صادق قائلًا: اهدأ يا بني، هذا ليس كلامي؛ فالتاريخ هو الذي يقول إنّ آخر الحملات الصليبية على الشرق الإسلامي والتي قادتها أمريكا وأوروبا في مطلع القرن الواحد والعشرين قد باءت بالفشلِ الذريع، فحين هاجمت ٥٧٠ طائرة حربية الأجواءَ العراقية أخذت تنفجرُ وتختفي، الواحدةُ تلو الأخرى، بصورة غامضة كما أن حاملاتِ الطائرات الأمريكية والبريطانية والقطع البحرية الأخرى حدث لها نفسُ الشيء، بذلت أمريكا وحلفاؤها وقتَها جهودًا خرافيّة لمحاولة معرفة ما حدث، وحين فشلوا في ذلك بذلوا مجهودات مماثلة لإخفاء ما حدثَ عن أعين شعوبهم وعنْ أعين العالم بسيلٍ من الأكاذيب المقنعة الشديدة الإتقان، والتي طالما برَعوا في صناعتها، ولكنّهم لم يستطيعوا أن يخفوا ذلك للأبد، وإلّا ما كنا عرفنا بذلك في عصرنا هذا؛ فلقد اكتشف العالمُ بعد ذلك بفترةٍ غير قصيرة ما حدثَ لتلك الحملة من اندحار، و.....

قاطعَه شهاب الذي لم يطقْ صبرًا بسبب ما يجتاح كيانَه من فرحة ونشوى: حمدًا لله، إنّ هذا يعني أنّني استطعتُ أن أرجع بإحدى منجزاتِكم العسكرية للماضي، وأوقف بها هؤلاء المجرمين، وأعتقد أنها إحدى مقاتلات السلاح الجوي العربي، ولكن هل تستطيع مقاتلةٌ واحدة مهما بلغ تطوّرها أن تفعل كلّ هذا، و....

قاطعَه دكتور صادق بحماسٍ شديد: بالطبع يا بني، إنّ إحدى مقاتلات السلاح الجوي العربي تستطيع أن تغزو العالمَ بأسره.

شهاب: ولكن يا دكتور، ماذا حين تنفدُ ذخائرها؟

ابتسم دكتور صادق وهو يقول بثقةِ العالِم الذي ملأه الفخر بما حقّقته بلاده: إنّ مقاتلاتنا العربية يا ولَدي تستخدم دفقات الليزر في تدمير أهدافها، فيكفي القول إنّ بندقية الليزر التي يتسلّح بها جنودنا في هذا العصر تستطيع دفقاتها- وإن شئت قلْ «طلقاتها» حتى يتناسب ذلك مع عصركم- أن

تثقب جدارًا من الصلب سمكُه ١٠٠سم، ولك أن تتخيّل ماذا تستطيع أن تفعله المقاتلة بقدراتها التسليحيّة التي تفوق البندقية مائة ضعف، ولنـ.....

قاطعَه شهاب بانفعال: رائعٌ جدًّا، ولكن كيـ....

– مهلًا يا بني، فلم أفرغ بعد. ثمّ أردف قائلًا: ومقاتلاتُنا الحربية وكلّ معداتنا العسكرية بها إمكانية إعادةِ شحن ذاتي؛ فالطائرات مثلًا ما دامت تتحرّك وتناور فإنها بذلك تلقى مقاومة من الوسط المحيط بها، وهو الهواء، ويتمّ استغلال تلك المقاومة لتوليد قوّةِ دفع ذاتية تستغلّها في إعادة توليد شعاع الليزر داخلَ مولّدات بجسم الطائرة، وهذا بتبسيط شديدٍ دون الخوض في تفاصيل؛ لأنّها بالغةُ التعقيد، وتعدّ أيضًا من الأسرار الحربية.

تنهّد شهاب، واسترخى على كرسيه، وأردف قائلًا: يا للروعة!

ثمّ لم يلبث أنْ أردف قائلًا ببعض القلق: وهل أستطيعُ أن أقودَ مثل هذه المقاتلة، وأنفّذ بها عمليات عسكرية؟

د/ صادق: إنّ هذا أبسطُ ما في الموضوع يا بني، بل قلْ كيف ستعود بها للماضي؟

شهاب: سأعود كما أتيت، هل نسيتَ يا دكتور؟

د/ صادق: نعم، نعم يا بني، عذرًا فلقد أمضيت عمري كلّه في هذا المشروع، وخرجت منه بقناعة أنّ أحدًا لن يستطيع التنقّل عبر الزمن إلّا بعد عدّة قرون من التقدّم العلمي، وهذا ما يجعل الفضولَ يتلاعب برأسي العجوز، ويدفعني لأن أسألك.. كيف استطعت أن تتوصّل لسرعة الضوء في عصرك الذي يبدو مقارنةً بعصرنا هذا شديدَ التخلّف؟!

نظر إليه شهاب قبل أن يردفَ قائلًا بودّ بالغ، وإن امتزج بالحزن والأسى:

- إنّني لا أنتمي لعصرٍ ما يا دكتور صادق، فأنا رجلٌ بلا زمان بلا مكان. صمت دكتور صادق لبرهة قبل أن يردفَ قائلًا: أين كنت يا بني؟ فإنّك بصدد القيام بعملٍ في منتهى النّبل والشجاعة، وسأساعدُك بكلّ ما أستطيع.

نظرَ إليه شهاب بامتنانٍ وتقدير بالغ، وهمّ بالتحدّث إلّا أنه ظهرتْ على وجهه فجأة معالمُ القلق والتوتّر على نحوٍ أدهش دكتور صادق، ما دفعه للتساؤل قائلًا: ما الأمرُ يا بني؟

شهاب: ماذا لو وقعتْ تلك المقاتلة في أيدي هؤلاء المجرمين، وقاموا بفحصها، و...

قاطعَه دكتور صادق وقد ارتسمتْ على وجهه ابتسامةٌ واثقة، وهو يقول: اطمئنّ يا ولدي، لو افترضنا جدلًا، وهذا شبه مستحيل، أنّهم اسْتطاعوا أن يحصلوا عليها ففوْرَ فحصهم لها ستدمّر ذاتيًّا لأنّه يجب إدخال شفرة معيّنة تتغيّر باستمرار، ولا يعرفها إلّا مهندسو قوّاتنا الجوية، ولو أنّهم استطاعوا أن يتفحّصوها، وذلك هو المستحيل بعينه، فلن يفيدهم ذلك مِن قريب أو من بعيد؛ فالفرق بيننا وبينهم بعيدٌ جدًّا يا ولدي.

وهنا، بدت ملامحُ الارتياح والانبساط على وجْه شهاب وهو يقول: عظيمٌ جدًّا، إذًا فلنسرع بإخبار المسئولين حتى يوفّروا لنا إحدى هذه المقاتلات، يجب أنـ.....

قاطعه دكتور صادق قائلًا:

- للأسف، لن يصدّقني أحد، وسيتّهمونني بالجنون لو أخبرتهم بأمرك، فلقد تعرّضت لانتقادٍ كبير عندما أعلنت عن مشروع «التنقل عبر الزمن»، وأنّنا نستطيع به أنْ نمحوَ آلام البشرية، ونصحّح أخطاء التاريخ، فبالرغم من التقدّم المذهل الذي حقّقناه إلّا أن مسألة الماضي والمستقبل مازلت بعيدة عن أذهان الكثير.

شهاب وقد بدا عليه الجزعُ وهو يقول: وما العمل إذًا يا دكتور!؟

د/ صادق: لا تقلق يا بني، فالمسألة مُنتهية بحكْم التاريخ، وسنجد حتمًا طريقةً ما وبسرعة، أعدُك بذلك، ولكن حتى يحدث ذلك يجب أن تبقى معي، فهنا المكانُ الوحيد الآمن الذي لن يفكّر فيه رجالُ الأمن القومي. ولم يكد ينطق بآخر كلماته حتى اندفعتْ سلوى وخلفَها مديرة المنزل، وبدا على سلوى الخوفُ والهلع، وهي تصرخ بانفعالٍ شديد قائلة:

- اهربْ يا شهاب.

وهنا، صاح صادق مخاطبًا مديرة منزله:

- ما الأمر يا منيرة؟

منيرة وقد بدا عليها الذّعر هي الأخرى، وهي تجيب قائلة:

- لا أدري ما الأمر يا دكتور، ولكنْ رجال الأمن القومي يحاصرون المنزل، وقد بدؤوا في اقتحامه، و....

اعترضَتها صرخاتُ سلوى المُلتاعة:

- اهرب يا شهاب، أرجوك اهرب.

وهنا، جاء مِن خلفها صوتٌ حادّ يقول بسخرية:

- يهرب إلى أين يا سيدتي؟

والتفت الجميعُ ليجدوا الرائد صلاح وسطَ حشدٍ من رجاله، وقد أشهروا مسدساتهم وبنادقهم الليزرية. مرّت

تلك اللحظات على شهاب وكأنّها جبالُ الأرض وقد جثمت فوق صدرِه، وأخذ شبحُ الفشل يطارده، وأخذت عشراتُ الأسئلة تعتصر مخّه بلا هوادة.. كيف سأتصرّف؟ وهل تكون تلك النهاية؟ ولكنّ التاريخ قال كلمته، ونجتْ بغداد مِن المجرمين! هل.. وهل.. وهل.. ولم يخرجه من تلك المعاناة سوى دكتور صادق الذي انْفجرَ في وجه صلاح قائلًا بمنتهى الحدّة:

– ما هذه الوقاحة يا هذا! كيف تجرؤ على اقتحام منزلي بهذا الشّكل؟ هل.....

قاطعَه صلاح بهدوء يتّسم بالتحدّي قائلًا:

– مع احترامي الشديد لكَ ولمكانتك العلمية يا سيدي، ولكن هل لي أنْ أسأل.. ماذا يفعل هذا الرجلُ عندك، وكلّ أجهزة الدولة الأمنية تبحث عنه؟! ولـ.....

قاطعه الدكتور صادق:

– إنّه ليس متهمًا بأيّ شيء، كما أنـ.....

قاطعه صلاح مرّة أخرى بعد أن ضاعفَ مِن جرعة التحدّي وهو يقول:

– سنرى يا دكتور بعد أن نقومَ بعملنا.

ثمّ أشار بيده لأحدِ رجاله، وعلى الفور تحرّك الرجل وقيّد «شهاب» بخشونة، واقتاده للخارج، وقد زالت حيرتُه ولم يعدْ بحاجة الآن أنْ يسأل نفسه.. كيف تركه الجنرال أمين يغادر الفيلّا برفقة حفيدتِه رغم أنّه وكما بدا عليه بوضوح حين أخبره بقصّته أنّه لا يصدّقه. أخذت سلوى تشاهد ما يحدث وقد انهمرتِ الدموع مِن عينيها، وهي تنظر إليه بلوعةٍ، وباتت متأكّدة الآن من إجابة السؤال الذي طالما سألتْه لنفسها منذ أنِ التقتْ به «نعم إنّه الحب»، وكانت تصرخ من أعماقها بذلك، ولولا حياءُ الأنثى بداخلها لصرخت بأعلى صوتٍ لها قائلة: اتركوه إنّه لم يفعل شيئًا.... اتركوه إنّي أحبّه، ولكنها لم تستطع أن تصمتَ للأبد فانطلقت تصرخ باسمه بلوعةٍ حين اقتاده صلاح ورجالُه للخارج، في حين أخذ دكتور صادق يقول:

– لا تقلقْ يا شهاب، سأنهي هذه المهزلة في أسرع وقت.

لم تتمالكْ سلوى نفسَها أكثر من ذلك، وألقت بنفسها فوقَ أحد الكراسي وأخذت في البكاء بحرارة، وهنا أشفق عليها الدكتور صادق وربتَ على كتفها بحنان الأبِ وهو يقول:

– اهدئي يا ابنتي، سأنقذه، إنّه جدير بأن نقف كلّنا معه.

وهنا، تمالكت سلوى نفسها، ورفعت وجهَها، ونظرت إليه وقد امتلأت عيناها بالدموع وهي تقول بأسى:

– مَن هو يا دكتور؟ مَن يكون؟

صمَتَ دكتور صادق لبرهةٍ قبل أن ينطق بمزيجٍ من الأسى والشجن: إنّه الماضي يا بنيتي، جاء يطلب منّا النجدة.

***

شيء غريب فعلًا. نطقَ مدير جهاز الأمن القومي العربي بهذه الجُملة حين علمَ من التقرير الذي قدّمه الرائد صلاح أنّ «شهاب» أو رجلَ الصحراء كما يطلقون عليه قد تمّ العثور

عليه بمنزل العالم الكبير دكتور صادق عز الدين، ثمّ أضاف قائلًا:

– ولكنْ ما علاقة دكتور صادق بهذا الرجل الغامض؟

صلاح: أغلبُ الظنّ يا سيدي أنّه كان يجري عليه بعضَ التجارب سرًّا ضمنَ مشروعه «التنقّل عبر الزمن» هذا الذي زعمَ أنه توقّف عنه، وعند اكتشاف أمره قام باختطافِه من المستشفى بمعاونة صحفيّة شابة بجريدة الحرية، ويكفى القول إنّ مصدر معلوماتي هو الجنرال أمين محفوظ .

مدير الجهاز: اختطافه!

قالها الرجل باستنكارٍ بالغ قبل أن يردفَ قائلًا:

– اسمعْ يا صلاح، إنّ الوضع كلّه لا يروق لي، لا تتعجّل الحكم على الأمور، وقمْ بتشكيل فريق للتّحقيقات، ولتعلم جيدًا أنّني لن أسمح بأي أخطاء؛ لأن الوضع ساعتَها سيكون بالغَ السوء لو أحرجنا أحد أهمّ رموزنا العلمية الدكتور

صادق، كما أن جريدة الحرية التي ذكرت أنّ تلك الصحفية تعمل بها هي مِن أشهرِ الجرائد وأكثرها احترامًا ومكانة في جميع أنحاء الولايات، كما أنّها حفيدة الجنرال أمين محفوظ أشهر مَن تولّى إدارة الجهاز. ثمّ ازداد حدّةً وصرامة وهو يقول:

- باختصار، غير مسموح بأيّة أخطاء يا صلاح.

صلاح، وقد بدا عليه الزهو والإعجاب بالذات وهو يقول: لا تقلقْ يا سيدي، لن تحدثَ أيّة أخطاء، أعدُك بذلك، ولتتأكّد أن مصادري موثوق بها بشكلٍ كبير جدًّا، فيكفي القول إنّنا حدّدنا مكان هذا الرجل بمعلومات وردتنا من الجنرال أمين محفوظ نفسِه.

اتسعت حدقتا مدير الجهاز، وارتفع حاجباه وهو يقول بدهشة:

- الجنرال أمين بنفسِه! شيء غريب! وماذا عن حفيدته، ومدى علاقتها بالموضوع؟

ثمّ تحوّلت نبرةُ صوته لصرامتها المعهودة، وعلا وجهَه الجمودُ وهو يقول بلهجةٍ شديدة الصرامة:

- لا توجد لدينا أيّة استثناءات يا صلاح.

صلاح: بكلّ تأكيد يا سيدي، هذا أمر مفروغٌ منه.

ثمّ أدّى التحية العسكرية، وانصرف متوجّهًا إلى مكتبه؛ حيث كان بانتظاره وعلى أحرّ من الجَمر علاء سالم، وقد بدتْ على وجْهه علامات الحنق والغضب، وما أن رآه حتى هبّ واقفًا، وأمسك بذراعه، وصرخ فيه قائلًا:

- فلتبقَ سلوى خارجَ هذه القضية تمامًا يا صلاح، فلو أصابها مكروهٌ أقسمُ أنّني.....

نهرَه صلاح بحدّة قائلًا:

- اجلس واهدأ يا علاء، إنّ الرجل نفسَه ليس مدانًا بشيء حتى الآن، وسوف أشرف على التّحقيق بنفسي.

ثمّ اكتسى صوتُه بمزيج من الصرامةِ والحدّة وهو يقول:

ولتعلمْ جيدًا أنّني سأقوم بعملي على الوجْه الأكمل، ولو أنّ أبي نفسَه متورّطٌ في شيء؛ فلن أتستّر عليه، وأنت تعلم ذلك عني جيدًا.

علاء: ولكنّني أنا الذي أرشدَكَ عن هذا الرجل، ولولاي ما خطر على بالكَ مطلقًا أنّه ببيت الدكتور صادق عز الدين، وأنـ.....

أشار إليه صلاح بغتةً بالتوقّف، وقد انعقد حاجباه، واتسعت عيناه على نحوٍ مُخيف، وهو يقول بهدوء يملؤه الشراسة:

- كيف عرفت أنّنا وجدناه في منزل الدكتور صادق؟

وهنا، أراد علاء أن يتحدّث، ولكن صلاح بادره بأنِ استلّ مسدسه الليزري، وألصقه برأسه وهو يقول بهدوءٍ مُخيف:

- لولا رصيدُ الصداقة التي بيننا لأطلقتُ عليك النار.

ثمّ ازداد صوتُه شراسة وحدّةً وهو يقول:

– هل تتجسّس على جهاز الأمن القومي العربي أيّها الأحمق؟

ألجمتِ المفاجأة علاء الذي بدا الذّعرُ واضحًا على وجهه لعدّة ثوانٍ قبل أن يتمالكَ نفسه ويُظهر بعضَ الغضب وهو يبعدُ بحدّةٍ مسدسَ علاء الملتصق تمامًا برأسه، ويقول بغضب الدنيا كلّها:

ـ وهو كذلك يا صلاح، تأكّد أني لن أنسى لك هذا الموقفَ ما حييت، أمّا عن تلك الصداقة التي تتحدّث عنها فلتنسَ أمرَها للأبد.

ثمّ غادر المكتبَ والغضبُ يجتاح كيانَه، وأعاد صلاح مسدسَه الليزري كما كان، وهو يغمغم بحنق قائلًا:

ـ هذا الأحمق سيودي بنفسِه من أجل فتاة!

***

وفي تلك الأثناء، كان شهاب يجلس بإحدى غرف الاحتجاز بمبنى جهاز الأمن القومي العربي، وقد بدأت الهواجسُ والسيناريوهات السيئة تتلاعبُ برأسه... ماذا لو لم يستطعْ دكتور صادق أن يتدخّل في الوقت المناسب؟ ماذا لو انتبهوا لساعةِ يدِه وفقدَها للأبد؟ لم يبقَ الكثير من الوقت قبل أن يتحوّل جسده لطاقةٍ ويتلاشى.. هل يتخلّى عمّا جاء من أجله، أم يغامر بحياته لإنقاذ الأبرياء مِن إجرام حثالة البشر؟ وكادت رأسُه تنفجر من كثرةِ التفكير، ولم ينقذْه سوى دخول جنديّين اصطحباه إلى إحدى غرف التحقيق، وما إنْ دخلها حتى وجدَ «صلاح» يجلس بين ستّة أشخاص آخرين مكوّنين فريقًا للتحقيق. أجلَسَ الجنديّان «شهاب» على أحد المقاعد الخاصة، وما إنْ جلس عليه حتّى التفّتْ بصورة مباغتة حول معصميْه وقدميْه حزم ليزرية زرقاء شلّت حركتَه تمامًا، وقيّدته، بدا التوترُ والقلق على وجْه شهاب من تلك المفاجأة، غير أنّه شعر ببعض الراحة لإخفائه ساعة يدِه، أو بمعنى أدقّ

جهاز التّفتيت الأيوني؛ حيث تركها في الغرفة التي كان محتجزًا بها داخلَ تجويف أحد المقاعد.

أخذ صلاح وفريقُه يحدقون به بشدّة قبل أن يوجّه صلاح حديثَه له قائلًا بصرامة:

- تلك الحزم الليزرية الزرقاء حول معصمَيك وساقيك ستتحوّل لحزم برتقالية اللّون إذا رصدت أجهزتُنا أيّة محاولة للكذب، وستُصاب على إثرها بآلامٍ مُبرحة في كلّ مرة تحاول فيها الكذب، أي إنّه لا مجال للخداع.

ثمّ ضحك قائلًا بسخرية:

- تمنّياتي بوقت سعيد.

ثمّ بدأ في إلقاء الأسئلة: مَن أنت؟ وبماذا تبرر تواجدك الغامض في الصحراء؟

كان شهاب قد أعدّ قصّة مُتقنة، وحفظها عن ظهرِ قلب وهو بغرفة الاحتجاز كمحاولةٍ لكسب بعض الوقت، ولكن

ماذا عساه أن يفعلَ مع تلك الحزم الليزرية التي ستكشفُ أمره، ومِن أوّل حرف ينطقُ به!؟ هل يروي الحقيقة كاملة؟ لن يصدّقوه، ستصدّقه الحزم والأجهزة والتّقنيات لكنهم... سكان المستقبل لن يصدّقوه، سيشكّون في أجهزتهم وتقنياتهم، ألم يقلْ دكتور صادق إنّ مسألة التنقّل عبر الزمن لازالت بعيدةً عن الأذهان، بالرغم من التقدّم المُذهل الذي تمّ تحقيقه، ثمّ إنّه في صراع مع الوقت لم يبقَ منه الكثير، وفجأة قفزتْ إلى رأسه وقلبه ووجدانه صورةُ فاطمة، تلك التي ذبحها المجرمون، إنّها الأمل؛ فهي مَن جاء مِن أجلها، وهي مَن سيناضل الآن مِن أجلها، وعلى الفور جعل شهاب كلّ تركيزه وتفكيرِه في فاطمة، وبرباطة جأشٍ وبصورة فاطمة التي ملأت قلبَه ووجدانه أجابَ قائلًا:

– اسْمي شهاب محمود، وأعملُ مصوّرًا صحفيًّا بجريدة الحرية، أمّا عن وجودي الغامض بالصّحراء كما ذكرت؛ فالأمرُ شديدُ البساطة، ولم يكن يسْتدعي كلّ هذه الضجّة،

لقد كنت أقودُ سيّارتي رقم م ف ـ ٧٦ عائدًا من دمنهور بعد زيارةٍ عائلية سريعة، وفجأة شعرتُ بآلام شنيعة تمزّق معدتي، فقرّرت التوقّف ومغادرةَ السيارة لأداء بعض تمارين اليوجا واستنشاق هواءِ الصحراء النّقي في محاولةٍ منى لتخفيف هذا الألم، وبالفعل اسْتلقيتُ على ظهري، وبدأت في عمل تلك التمارين، وفجأة رأيتُ فوقي على مسافةٍ ليست بعيدة وكأنّ خطًّا مستقيماً من الضوء المتوهّج ينطلق، وقد ومضَ فجأة وكأنّه البرق، ولمْ أشعر بعدَها بنفسي إلّا وأنا بالمستشفى.

وكانت المفاجأة.. لم يحدث شيء، لم يتغيّر لون الحزم، إنّ الأجهزة تصدّقه.. سينجح.. بالتأكيد سينجح..

بدا صلاح وفريقُه بعد أنْ أجاب شهاب ولم تلتقط الأجهزة أيَّ دليل على أنّه يكذب أو يخادع؛ بدوا أقلّ تشكّكًا من ذي قبل، ولكنهم على أيّة حال لم يحسموا أمرَهم بعد، وعاود صلاح طرحَ الأسئلة قائلًا:

– إذًا، لماذا هربت من المستشفى إنْ كان الأمر كما تقول؟

تصنّع شهاب الدهشةَ وهو يقول:

– أهربُ! ولماذا؟ لقد طمأنني الدكتور المعالج على حالتي، وأنّ تلك الآلام التي هاجمتني مجرّد تقلّص في عضلات البطن نتيجةَ الإجهاد، وحين اطمأننت على صحّتي غادرت المستشفى، ولم يعترض طريقي أحد، ولو أنّني أعلم أنّي مطلوب لديكم لجئتُ إلى هنا طواعية، ثمّ إنّني بعد أن غادرت المستشفى قمتُ بالإبلاغ عن فقدِ سيارتي، وعن هذا الضوء الساطع الذي رأيته في السماء.

كان شهاب يعلمُ جيدًا أنه من السهل على صلاح أن يتأكّد من صحة كلامه، وأن يكتشفوا أنّه يكذب في كلّ ما قال إذا قام ببعضِ التحريات البسيطة كالسؤال في المستشفى مثلًا عمّا رواه شهاب، ولكنه واصل إلقاء قصّته ردًّا على كلّ سؤال، وكان غايته في ذلك ألّا يشدّدوا عليه إجراءات الحراسة؛ بحيث يوضَع بمكان ما يستحيلُ معه الهرب لو ازْداد الموقف تعقيدًا، ولم يجد أمامَه سوى الهرب سبيلًا، أو ربما يقتنعوا إلى

حدّ ما بقصّته، فيتركوه، ثمّ يقوموا بمراقبته أو أي شيء من هذا القبيل.

صلاح: وبمَ تفسّر إذًا تواجدك بمنزل الدكتور صادق عز الدين؟

شهاب: كما قلت لك إنّني مصوّر صحفي، وهذا الضوء المتوهّج الذي رأيته فجأة في الصحراء، وما أعقبه ذلك مِن فقدانٍ لوعيي جعلني أتذكّر تلك القصص التي سادت في القرن العشرين عن وجود كائناتٍ فضائية تهبطُ من الفضاء الخارجي بأطباقها الطائرة، وتقوم باختطاف البشر كي تجري عليهم بعض التجارب؛ فشككْت أنه لربما حدث ذلك معي هذا اليوم، وإلا لماذا فقدتُ وعيي فوْر رؤيتي لهذا الضوء الغامض؟ فذهبت للدكتور صادق باعتباره أشهر علماء الأرض في هذا المجال، واستفسرت منه عمّا حدث لي في الصحراء، ثمّ انتهزت الفرصة وقمتُ بعمل حديث صحفيّ معه أنا وزميلة لي بالجريدة عنْ ذات الموضوع، وكانت الأمور

تسيرُ على ما يُرام، وقد قَبِل الدكتور صادق أخيرًا وبعد انقطاع عامَيْن عن الصحافة أنْ يدلي بحديثٍ صحفي للجريدة، لولا هجومكم على المنزل واصطحابي إلى هنا.

وظلّ شهاب على هذه الوتيرة، وصلاح يسأل، ومَن معه يحلّلون إجابات شهاب، واستمرّ التحقيقُ لمدّة ثلاث ساعات متّصلة. وفي نهاية التّحقيق، أحسّ شهاب بأن فريق التحقيق- وعلى رأسهم صلاح- قد بدؤوا يميلون لقصّته، خصوصًا مع عدم التقاط أجهزتهم لكشفِ الكذب هذه لأيّة محاولة للخداع أو المراوغة، وإن كانت الرّيبة لازالت موجودة بداخل صلاح ظاهرةً على وجهه، ولاحظ شهاب ذلك جيدًا غير أنّه شعر ببعض الراحة والطمأنينة حين أردفَ صلاح قائلًا بهدوء:

- حسنًا يا أستاذ شهاب، سنجري بعضَ الاختبارات بمعامِلنا على حامضِك النووي، ولو خرجتْ نتيجة هذا التحليل مُرْضية سنكون وقتَها مَدينين لك بالاعتذار.

شهاب، وقد حاول أن يظهرَ بعضَ الغضب وهو يقول:

– وحتى يحدث ذلك هل سأظلّ هكذا رهنَ الاعتقال؟

صلاح: لمَ تسمّه هكذا يا أستاذ شهاب! لماذا لا تقلْ إنّك مثلًا في ضيافتنا لعدّة ساعات، وإنْ شئت أن تنتظرَهم في مكتبي فليس عندي أي مانع؟ حاول شهاب أن يكون فظًّا ليعطي للجميع رسالةً نفسية أنه لا يخاف من شيء، وبالتالي فهو بريء من تلك الشكوك التي تدور حوله، فقال بشكلٍ فجّ لصلاح: كلّا، أفضّل قضاءَ تلك الساعات اللّعينة بمفردي كي لا أتهوّر وأفقد أعصابي وأحطّم أسنان أحدٍ ما.

قال ذلك وهو ينظر لصلاح بمنتهى التحدّي في مشهدٍ رآه الجميع، وقد خرجوا بعدَه بانطباعٍ شبه يقيني أنّ مثل هذا الرجل الذي لم تهتزّ له شعرة ولمدة ثلاث ساعات متواصلة أمامَ حصار وضغطِ فريقٍ من جهاز الأمن القومي يترأسُه الرجل المطرقة؛ لا بدّ أن يكون بريئًا. نظر إليه صلاح بحنق وهو يقول:

– حسنًا يا أستاذ شهاب كما تحبّ.

ثمّ ضغط على أحدِ الأزرار، وعلى الفور دخل أحدُ الجنود للغرفة بعد أن أدّى التحية العسكرية بقوة، فأشار إليه باصْطحاب شهاب قائلًا:

- نفّذ له كلّ ما يطلبه في حدود صلاحياتك.

ثمّ أخذه الجندي وغادر الغرفة إلى حيث غرفة الاحتجاز، ثمّ سأله: هل تريد شيئًا؟

شهاب: جريدة اليوم، وبعضَ الطعام والماء.

الجندي: حالًا سيكون ما طلبت جاهزًا.

وعلى الفور، أخرج شهاب من تجويف أحدِ المقاعد جهازَه للتنقل عبر الزمن، ووضعه حول معصمِه، كان يعلم جيدًا أنه عليه التحرّك سريعًا، وألّا ينتظر نجدةَ الدكتور صادق لأنّ فريق التحقيق هذا الذي اعتصره لمدّة ثلاث ساعات متّصلة سيعلم حتمًا بأنّ كلّ ما قال ليس حقيقيًّا، وساعتَها ستتعقّد الأمور وتزداد سوءًا، فضلًا عن ذلك أنّ الوقت ليس في صالحه على الإطلاق؛ فلم يبقَ أمامه في هذا العصر سوى ٤٨

ساعة قبل أن يتلاشى جسده. وهنا، قطع الحارس عليه حبلَ أفكاره بعد أن أحضرَ له ما طلبه. التقط شهاب الجريدةَ وأخذ يتصفّحها، ووقعت عيناه على خبر يقول «المقاتلة صقر قريش ـ ٧٦ تشتركُ في العرض العسكري اليوم المُقام بالقاهرة احتفالاً بعيد الوحدة». وهنا، لمعت عيناه بعد أنْ قفزت لرأسه فكرةٌ ما.. فكرةٌ شديدة الجرأة، ولكنها أملُه الوحيد. وعلى الفور قرّر البدء في تنفيذها، وفجأة استلقى على الأرض، وأمسك ببطنِه وأخذَ يصرخ ويصيح، وعلى الفور دخل الحارسان الغرفة ليتبيّنوا ما الأمر، وحين رأوا الوضعَ هكذا انْدفعوا نحو شهاب، وأخذوا يتفحّصونه، وفجأة وبسرعةِ البرق هوى شهاب بقبضتِه اليمنى على مؤخّرة رأس أحدهم فخَرّ فاقدًا الوعي، في نفس الوقت كانت راحةُ يده اليسرى قد أطاحتْ بعنق الآخر ليسقط هو الآخر فاقدًا الوعي بجانب زميله، وبسرعة البرق نزعَ شهاب ملابسَ أحدهم وارتداها، ثمّ قيّدهما وكمّم فاهَ كلٍّ منهما، وأخذ مسدسَ أحدهما الليزري، وانطلق نحوَ الأمل.... الأمل الوحيد.

***

ماذا! هل تمزحين؟

نطقت الدكتورةُ هالة بهذه العبارة وهي تنظر في استغرابٍ ودهشة لسلوى قبل أن تردف قائلة: «رجلٌ من الماضي!» وهنا، بكتْ سلوى بحرارةٍ وأشفقت عليها هالة وهي تقول بانفعال: ماذا بك يا سلوى!؟ ما الأمر؟ هل.....

قاطعتْها سلوى والدموعُ تنهمر مِن عينيها: إنّني أحبّه يا هالة، أحبّه، لم أشعر بهذا الإحساس من قبْل إلّا معه.

اقتربت منها هالة، وضمّتها إليها بحنانٍ بالغ قبل أن تقول: هوّني عليك يا حبيبتي، واحكي لي ما الأمر..

قصّت عليها سلوى كلّ ما كان منها مع شهاب منذ أنْ رأته لأوّل مرة بالمستشفى وحتى أتى صلاح ورجالُه وأخذوه من منزل الدكتور صادق، بدت هالة لا تصدّق ما تسمعه، وخصوصًا ما قاله دكتور صادق عن شهاب، ثمّ قالت لسلوى: لنفكّر بهدوءٍ يا حبيبتي، لو أنّ هذا الرجل- كما يقول الدكتور صادق- فتعلّقك به جنون، إنّك صغيرة وجميلة، وعشراتُ

الرجال يتمنّون الارتباطَ بك، إنّ المستقبل كله أمامَك، فلا تعيشي في الأوهام، ولا تجري وراءَ سرابٍ لن يتحقّق أبدًا، فلا تعذّبي نفسك يا حبيبتي، ولتنسي هذا الرجل، فلتنسه تمامًا.

سلوى: كيف يا هالة!؟ سيموت لو لم نساعدْه في أقلّ من ٤٨ ساعة، أعلم أنّ الأمر صعب التصديق، لكنّ قلبي يؤكّد لي أنّه كما قال دكتور صادق «رجلٌ من الماضي».

ثمّ انخرطت في البكاء مجدّدًا، وهنا دخل علاء عليْهما المكتب، وهمّت سلوى بالتحدّث إلّا أنه استوقفَها قائلًا:

- أرجوك يا سلوى، فلتسمعيني هذه المرّة، فربّما تكون المرّة الأخيرة.

ثمّ واصل حديثَه قائلًا: إنّني لا أستطيع أنْ أراك هكذا، فالحبّ تضحية وعطاء، وإنْ لم أستطع أنْ أفوز بقلبك دعيني أدفعُ عنك ما أنتِ فيه من حزنٍ وهمّ؛ فهذا يمثّل الكثير بالنسبة لي، فحين أراكِ سعيدة حتى ولو مع غيري أهوْنُ بكثير من أنْ أراك في تلك الحالة ولو كان شهاب هو ما اختاره قلبُك فإنّي

أبارك هذا الاختيار، وسأعمل بكلّ ما أستطيع على مساعدتِه وإخراجه من مأزقِه، ولو.....

قاطعتْه سلوى وهي تبكي بحرارة قائلة: إنّك لا تعرف شيئًا.

ثمّ هبّت واقفةً، وانطلقت تغادر المكان، وعلاء وراءها يحاول إيقافَها قائلًا: سلوى.. سلوى، إلى أين أنت ذاهبة، أنـ.....

قاطعتْه هالة: دعْها الآن يا علاء، ولتجلس فإنّي أريد التحدّثَ معك.

جلس علاء، وقلبُه يعتصر ألمًا من تلك الحالة التي رأى فيها الإنسانةَ الوحيدة التي أحبّها، وقال لهالة: أقسمُ أنّني مستعدّ أن أفعل أي شيء حتى أخفّف عنها ما هي فيه.

هالة: أشكرُك يا علاء على مشاعرك النبيلة تجاه سلوى، ولكنّها الآن تمرّ بأزمةٍ عنيفة، وتحتاج مساعدةَ كلّ مَن يحبّها.

ثمّ روتْ له كلّ ما سمعته مِن سلوى، نظرَ إليها علاء والحزنُ يعتصر قلبَه، وقد بدا واضحًا على قسمات وجهه وفي عينيه التي اغرورقت بالدموع، وهو يقول: عجبًا للأقدار، قلبُها يتعلّق برجل لا وجود له، ومَن يعشقها حتى الجنون فإنّها لا تشعر حتى بوجوده!!

ثمّ صمَتَ لبرهة قبل أن يقول:

– على أيّة حال، لو أنّ مساعدتي له ستسعدُها؛ فلن أتردّد في فعل ذلك حتى لو كلّفني ذلك حياتي.

ثمّ همّ بالانصراف، فاستوقفتْه هالة قائلة:

– إنّك إنسانٌ نبيل يا علاء، ولقد بدأت أشعر أنّك أصبحت جديرًا بسلوى.

نظرَ إليها والحزنُ والأسى يملآن وجهه، وقال بصوتٍ تعتصره المرارة:

– وما الفائدةُ ما دام قلبُها معلّقًا بغيري!؟ ثمّ انصرف مسرعًا.

***

٦- الولاياتُ المتحدة الإسلامية..

بقصر الرئاسة المسمّى «قصر الوحدة» القابع في أحدِ الأحياء الراقية بمدينة القاهرة، جلس الدكتور صادق عزّ الدين في انتظار مقابلة رئيس الولايات المتحدة الإسلامية شخصيًّا طلبًا في مساعدته وتدخّله الشخصي لمساعدة شهاب. كان مكتب الرئيس شديدَ العظمة فهو المكان الذي يحكَم منه العالم، وقد احتلّت خريطته أحدَ الحوائط بالكامل، كلّ شيء بالمكتب يدعو للفخْر والقوّة والعظمة. ولم يمضِ كثيرٌ من الوقت حتى ظهر الرئيس محاطًا بعددٍ من حرسِه الشخصي، وما أنْ رأى الدكتور صادق عزّ الدين حتى أقبل عليه وصافحه بحرارة ورحّب به بحفاوةٍ شديدة تقديرًا منه للعلم والعلماء؛ حيث كان الرئيس نفسُه أحد علماء الفيزياء البارزين قبل أن يتّجه للعمل السياسي، وقد جاء لتوّه من جامعة القاهرة بعد أن ألقى إحدى المحاضرات أمام طلابِ الفرقة النهائيّة بكلية العلوم.

الرئيس: مرحبًا بك يا دكتور صادق، لكَمْ أتشوّق لرؤيتك، ولكنّك تبخل علينا ببضع دقائق من وقتك الثمين.

ارتسمتِ ابتسامةٌ مشوبة بالقلق والتوتّر على وجه الدكتور صادق وهو يقول:

ــ عفوًا يا سيادة الرئيس، ولكنّني أعلم مدى انشغالك وحجم أعبائك، وفّقك الله وأعانك.

الرئيس: إن لم أكنْ مُخطئًا؛ فإنّك مهموم بعض الشيء.

د/ صادق: لقد وفّرتْ عليّ فراستك الكثيرَ سيدي الرئيس.

بدا الاهتمامُ واضحًا على وجه الرئيس حين قال:

ــ تكلّم يا دكتور صادق، هات ما عندك.

د/ صادق: لقد جئتُ إليك وكلّي أمل في عقليّة العالم التي تحملها، وكلّي رجاءٌ في مساعدتك وتدخّلك الشخصي.

الرئيس: تكلّم يا دكتور صادق، إنّك من أهمّ رموزنا العلمية، وكلّ كلمة تنطق بها هي مصدرُ ثقةٍ لا شكّ فيها.

بدا على وجه الدكتور صادق مظاهرُ الاطمئنان، وأردف قائلًا:

ــ أشكركَ يا سيادة الرئيس.

ثمّ بدأ يقصّ عليه قصّة شهاب، وما جاء من أجله، وما ينتظره من دعم. صمَتَ الرئيس لبرهة من الوقت، وبدا خلالها شديدَ التركيز قبل أن يردفَ قائلًا:

ــ بالرّغم من أنّ ما تقوله يصعبُ على الكثير تصديقُه، إلّا أنّني كعالمٍ أثق بما تقول يا دكتور صادق.

تهلّلت أسارير الرجل، وأردف قائلًا بانفعال:

ــ لا أستطيعُ أن أعبّر عن مدى امتناني لك يا سيادة الرئيس.

ابتسمَ الرئيس بودّ، وأردف قائلًا:

ــ ولكنْ هل رأيت بنفسك هذا الجهاز الذي يتنقّل به ذلك الرجل عبرَ الزّمن، وفحصته بنفسك؟

د/ صادق: لم يمْهلنا رجالُ الأمن القومي؛ فلقد داهموا منزلي، وقاموا باعتقاله، وكما ذكرت لك يا سيدي الرئيس إنّ الوقت ليس في صالحه، فلم يتبقّ الكثيرُ قبل أن يتفتّت جسده ويتحوّل إلى فوتونات ضوئية ويتلاشى للأبد.

الرئيس: إنّ أمرًا كهذا كان لا بدّ أن أعرضَه أوّلًا على عدّة لجان علمية وعسكرية واستخباراتية، ثمّ أحوّله على مجلس الشورى، ثمّ أبتّ فيه بعد ذلك، ولكنّ الأمر كما قلت أنتَ يحتاج تدخلًا شخصيًّا مني.

ثمّ أشار بيدِه، وعلى الفور تقدّم كبير الياوران، ووقف على بُعد عدّة خطوات من الرئيس، وأدّى التحية العسكرية بقوّة وثبات، فبادرَه الرئيس قائلًا:

ــ اتّصل بجهاز الأمن القومي، وأعْطهم أمرًا من الرئيس بالإفراج فورًا عنْ شخص يدعى شهاب محمود، ثمّ أعطِ

أمرًا مماثلًا للقوات الجوية بأنْ يجهّزوا إحدى مقاتلات صقر قريش- ٧٦ في مهمّة رئاسيّة عاجلة.

وعلى الفور، انطلق الرجل ينفّذ تعليمات الرئيس.. رئيس الولايات المتحدة الإسلامية. وهنا، لم يتمالك الدكتور صادق نفسَه من الفرح فهبّ واقفًا وهو يقول:

ــ لكَمْ أنا فخورٌ بك يا سيدي الرئيس!

فنهض الرئيس بدوْره احترامًا وإجلالًا للدكتور صادق، ولكبر سنّه وهو يقول بودّ: اجلسْ يا دكتور صادق، لا ترهقْ نفسك.

وجلس الاثنان معًا، وأردف الرئيس قائلًا:

ــ لا داعي للشكر، لم أفعل شيئًا إلّا عن اقتناع تامّ، فلا مجال للمجاملات والمحاباة في مؤسسة الرئاسة، فمنذ الوحدة العربية الكبرى وتطبيق الشريعة الإسلامية؛ وجميعُ مؤسسات الدولة ومِن ضمنها مؤسسة الرئاسة تخضعُ لقوانين الشريعة،

وتراقب «مشيخة الإسلام» تطبيق نصوص الشريعة الإسلامية بحزمٍ وصرامة، فلا مجال للاستبداد والفساد. ثمّ أردف قائلًا بقوّة:

ــ إنّنا لن نسمح مطلقًا بأن تعود عقاربُ الساعة للوراء وقتَ أن كانت الشعوبُ العربية تعاني من الجهل والفقر والمرض، تُنهب ثرواتها وتُحتقر إرادتها، وتعيش عيشَ العبيد، يسومُهم سوءَ العذاب العملاءُ والجبناءُ من بني جلدتهم من صنائع عدوّهم، وكما قلتُ لك إنّ موضوع التنقّل عبر الزمن هذا بعيدٌ عن ذهن الكثيرين، ولن ينقذني من العزل سوى أن يرى الجميع صقرَ قريش ـ ٧٦ وهي تخترق حاجزَ الزمن أمامَ أعينهم، وإلّا سيوجّه لي تهمة الفساد واستغلال النفوذ.

دكتور صادق: تأكّد يا سيادة الرئيس أنّ ذلك سيحدث، وسيراه الجميع أمامَ أعينهم، وسيسجّل لك التاريخ ما قمتَ به من أجل شعوبنا المضطهَدَة في هذا الزمن البائد.

***

غادر شهاب مبنى جهاز الأمن القومي متنكّرًا في ذي أحدِ الحراس ومعه مسدّسُه الليزري، وبينما هو سائر يفكّر كيف سيصل لمكان العرض العسكري، إذ بصوتٍ يأتي مِن خلفه مباشرة، وينادي عليه باسمه؛ فالتفتَ لمصدر الصوت فإذا به علاء سالم، انتابت شهاب الدهشةَ وبدأت الشكوكُ تساوره مِن هذا الشاب.. هل انكشف أمرُه؟ وماذا يفعل في مكانٍ مفتوح كهذا؟ إنّه لو تحرك أيّة حركة عدائية سيصابُ بدفقات من أشعة الليزر، ثمّ ينكشفُ أمره وهو لازال على بُعد خطوات من مبنى جهاز الأمن القومي، ماذا يفعل؟ وقف للحظاتٍ صامتًا يعتصر ذهنه ليجد حلًّا إلّا أنّ الحل قدّمه له علاء نفسُه حين قال: إنّك لا تعرفني، ولكنّني أعرفك جيدًا، ويكفي أن أقول لك إنّني علاء الذي بالتأكيد قد قصّت عليك سلوى حكايتَه معها، وقبل أن تخطئ الفهمَ فأنا هنا لمساعدتك، فلقد علمتُ عنك كلّ شيء، بالطبع لا أستوعبُ فكرة التنقّل عبر الزمن تلك، ولكنْ سأساعدك على أيّة حال، ولـ.....

قاطعَه شهاب قائلًا: ولِمَ أثق فيك؟

علاء: نحنُ لازلنا أمام جهاز الأمن القومي، ولحظات قليلة قبل أن يكتشفوا هروبك، ثمّ إنّه لا خيار لك سوى أن تثقَ بي.

كان علاء على حقّ، فلم يكن لشهاب أي خيار آخر.

شهاب: وهو كذلك، ولكن اعْلم أنّ الوقت.....

قاطعَه قائلًا: نعم، أعلم أنه ليسَ في صالحك.

ثمّ أشار إليه قائلًا: إذًا، هيّا بنا.

وركبا السيارة، وانطلقا.

شهاب: أريدُ أن أذهب لمكان العرض العسكري.

علاء: حسنًا.

شهاب: أخبرني لماذا تساعدني؟

علاء: لأنّني أحبّ سلوى، وهي تحبّك، و.....

قاطعَه قائلًا:

ــ اسمعْ يا علاء، إنّني لا أنتمي لهذا العصر، وبالتالي لا أنتمي لأحدٍ فيه، سلوى فتاة رقيقة وجديرةٌ بالاحترام، فكنْ على مستوى الارتباط بها؛ هذا لو أنّ حبّك لها حقيقي.

التفتَ إليه علاء وأحسّ وكأنّ جبال الأرض قد انزاحتْ من فوق صدره فجأة، وهو يقول بانفعالٍ بالغ: هل حقًّا لا تحبّها؟ هلـ....

قاطعَه شهاب: كما قلت لك، أصلحْ من شأنك، وستكون جديرًا بها، وأتمنّى لكما التوفيق والسعادة.

نظر إليه علاء، وقد تهلّلت أساريره، وأردف قائلًا: أشكرُك يا شهاب، إنّني مدين لك بـ.....

قاطعَه شهاب وهو ينظرُ للطريق أمامه:

ــ لستَ مدينًا لي بشيء، بل أنا الذي أدينُ لك الآن، وتأكد أنك تقوم الآن بشيء عظيم ستفخرُ به يومًا ما.

علاء: ولكنْ بمَ تفكّر؟ ولماذا الذهابُ للعرض العسكري؟

أجاب شهاب ممازحًا: أهوى مشاهدة الطائرات.

علاء: ماذا هلـ.....

قاطعه شهاب: هل اقتربنا؟

علاء: لقد وصلنا بالفعل. ولكن اشرحْ لي كي أتمكّن من مساعدتك.

شهاب: لا أريد توريطَك في شيء، ربما لا أنجح.

علاء: لا تخفْ؛ إنّني.....

قاطعَه شهاب: كلّ ما أطلبُه منك أن تنصرفَ فورًا بعد أن تنزلني من السيارة، وتنسى الموضوع تمامًا.

حاول علاء أن يتكلّم، لكنّ «شهاب» بادره قائلًا: تلك هي مساعدتك.

ونزل من السيارة، ولم يجدْ صعوبة وهو بهذا الزيّ أن يدخلَ إلى مكان العرض العسكري الذي كان يعجّ من الداخل بالعسكريّين والمدنيّين على حدّ سواء، وكان الجميع في انتظار العرض العسكري الذي لم يبدأ بعْدُ. تقدّم شهاب نحو أحدِ العسكريّين، وسأله عن مدرج الطائرات، فأشار إليه في أحدِ الاتجاهات، فالتفت شهاب إلى حيث أشار الرجل فإذا بالطائرات تقف على أرض المدرج بأشكالها وأنواعها المختلفة، وحولها عددٌ من الفنيّين يتفحّصونها قبل الإقلاع للمشاركة في العرض. أسرع شهاب نحو المدرجِ وهو يتذكّر ما قاله الدكتور صادق عن القدرات الخرافية لمقاتلات سلاح الجو العربي في هذا العصر، وتذكر أيضًا ما قرأه بالجريدة عنْ مشاركة مقاتلات من طراز صقر قريش – ٧٦ في العرض. دار كلّ ذلك في ذهنه إلى أنِ اقْترب من أحد الطيّارين فسأله عن قائد سربِ مقاتلات صقر قريش ـ ٧٦، فأجابه بأنّه العقيد طيار/ محمد فوزي، وأشار إلى مكان تواجُده مع باقي أفراد السربِ، وعلى الفور ذهبَ شهاب لأحدِ دورات المياه، وخلع

زيَّ الحارس الذي كان يرتديه، واحتفظ بمسدّس الليزر، ووضع على صدره «كارنيه» جريدة الحرية الذي أعطتْه له سلوى. وهنا، شعر بشجن وحزنٍ يعتصران قلبه عندما تذكّر ذاك الملاك الرّقيق سلوى، وأنّه لن يراها ثانية وإلى الأبد، إنّه لن يتمكّن حتى مِن توديعها، فلكَمْ يشفق على تلك الصغيرة ممّا سيصيبُ قلبَها من لوعة حين تعرف قصّته، وذلك بعد أن تأكّد من حبّها له، ولم يلبثْ أن انتزع نفسَه من شجونه وآلامه، وتوجّه إلى حيث أشار طيارُ المستقبل نحو إحدى البنايات التي تقع بجانب مدرج الطائرات وتقدّم نحو أحد الجنود الذي كان يقف لحراستِه، وبادره شهاب بالحديث قائلًا: شهاب محمود، مصوّر صحفي بجريدة الحرية، وأريد مقابلة العقيد/ محمد فوزي.

الحارس: لا وقت لذلك؛ فسيادة العقيد مع باقي الطيّارين في تلقينهم الأخير قبل الإقلاع.

شهاب: فقط.. سآخذ صورةً جماعية لهم قبل أن ينطلقوا، ستكون صورة الغلافِ غدًا، ولن أزعج أحدًا، أعدُك بذلك.

لم يتعنّت الحارس، وسمح له بالدخول، وشكره شهاب في عجالة وهو يدلفُ للداخل، وما إنْ فعل حتى لمحَ ببصره مجموعةً من الطيّارين بملابس القتال يلتفّون حول العقيد محمد فوزي، وكان يعطيهم تعليماته الأخيرة قبل الإقلاع بمقاتلاتهم، وكانوا على درجةٍ عالية من التركيز بحيث لم ينتبِه أحدٌ لوجوده، وفوْر انتهائه اندفع شهاب نحوه قائلًا: شهاب محمود، من جريدة الحرية، هلـ.....

قاطعَه العقيد/ محمد فوزي وهو يغادر المكان قائلًا: لا وقت لذلك يا أستاذ شهاب، سنقلع الآن.

ثمّ وجّه أوامرَه لطيّاريه قائلًا: ٦ دقائق من الآن، ويكون الجميع أمامَ مقاتلاتهم.

ثمّ غادر المكان، ووراءه عددٌ من الطيّارين، ولم يبقَ سوى أربعة طيارين أخذوا يتفحّصون ملابسهم ومعداتهم للمرة الأخيرة، ولم يكترث أحدٌ بشهاب على الإطلاق، وقد بدؤوا يخرجون الواحد تلو الآخر، إلى أن كان الأخير، فلحق به

شهاب وألحّ عليه في إعطائه كلمةً قبل الإقلاع، ونجحَ شهاب في استيقافه للحظات، وما إن تأكّد أنّ المكان خالٍ تمامًا إلّا منهما؛ حتى استلّ مسدسَ الليزر، وما إنْ رأى الطيار ذلك حتى سارع هو الآخر إلى مسدّسه الليزري المثبّت أمام صدره، ولكنّ شهاب وبسرعة البرق عاجَلَه بلكمةٍ بين حاجبيه أفقدتْه الوعي في الحال قائلًا بتأثّر: عذرًا يا أخي، فالأمرُ جدير ببعض المعاناة.

ثمّ نزع ملابسَه وارتداها، وكان مِن حُسن الحظ أنّ جسد الطيار مقاربٌ لجسده، ثمّ غادر المكان بعد أن قيّد الرجل، وأخفاه داخل أحد دورات المياه، ثمّ اندفع للخارج قاصدًا مدرّج الطائرات، وأخذ يسرع والطائرات تقتربُ منه شيئًا فشيئًا، وبدأ الحلم يتحقّق شيئًا فشيئًا، وفجأة- وعلى غير توقّع- أحسّ شهاب بشيء ما يضغطُ على ظهره، وصوتٍ مألوف يقول: تحرّك معي بلا أي مقاومة، وإلّا سأطلق عليك النار.

التفتَ شهاب إلى مصدر الصوت، وكادتِ الأرض تزولُ من تحت قدميه حين رأى ذلك المتنمّر أو الرجل المطرقة كما يطلقون عليه في جهاز الأمن القومي العربي، إنّه الرائد/ صلاح بسيوني، يقف وعلى وجهِه بدتِ ابتسامةٌ ساخرة، وهو يقول: لمَ العجلة يا أستاذ شهاب، إنْ كان هذا هو اسمَك الحقيقي، إنّنا لم نُنْهِ حديثنا بعد؟

وأخذ ينظرُ لشهاب بنظراتٍ متهكّمة يملؤها الغرور، وكانت تلك هي أصعبَ لحظات مرّ بها شهاب منذ أن قفزَ للمستقبل، فها هو على بُعد عدّة خطواتٍ من تحقيق حلمه، ثمّ تنشقّ الأرض فجأة عن هذا الرجل ليحوّل هذا الحلم إلى «كابوس»! بضعة خطوات ويتمكّن من التصدّي لحقدٍ وحشي «همجي»، ذبَح الأطفالَ والشيوخ، وافترسَ النساءَ في شوارع بغداد والبصرة والموصل، وبدأت عقارب الساعة لا تتحرّك، وبدا الزمنُ عاجزًا عن التقدّم.. هل يمكن للمستقبل الموشك على إنقاذ ماضيه التّعِس من بؤسِه وشقائه هو نفسُه مَن يسلّمه

لجلّاديه؟ هل يمكنُ أن تكون تلك هي النهاية؟ وفجأة ودونَ مقدّمات، وبلا سابق إنذار وكما ظهر هذا الكابوس فجأة ترنّح أيضًا فجأة، وأطاحت به ضربةٌ قوية من أحدِ سواعد المستقبل ليتلقّى بدوْره عدّة دفقاتٍ من أشعة الليزر مرسلةً عبر الأقمار الصناعية من خلال شبكة الردع الفضائي، ولم يكن الفاعلُ يجهل ما سيحدث له، بل كان يعرفه جيدًا كما يعرفه كلّ سكان هذا العصر، ولكنّه فعلَ ما فعلَ عن قناعةٍ تامّة ورضا عن النفس وإحساسٍ بالفخر. كانت عقارب الساعة قد عادتْ للحركة مرةً أخرى، ولكنّها بدتْ لشهاب تقفزُ هذه المرة تعويضًا لما فاتها في فترة السكون وشهاب ينظرُ بانفعال وبتقديرٍ وامتنان بالغين إلى علاء سالم الذي تمدّد بجسدِه، وبجواره تمدّد الكابوس.. تمدّد الرائد/ صلاح بسيوني!

انطلق شهاب نحوَ الطائرات المستقرّة على أرض المدرج بعد أن ارتدى خوذةَ القتال التي أخفتْ وجهَه تمامًا، وكان العقيد/ محمد فوزي يجمع طيّاريه، وهنا انضمّ شهاب إليهم،

وانتظمَ الطيّارون التسعة في صفٍ واحد أمام قائدهم الذي أخذ يلقّنهم تعليماته الأخيرة قبل الإقلاع، ثمّ توجّه الجميعُ إلى طائراتهم، وصعد شهاب لإحدى مقاتلات سلاح الجوّ العربي مِن طراز «صقر قريش ـ ٧٦» وداخل كابينة القيادة كان يوجد عددٌ كبيرٌ من الأزرار بألوانٍ مختلفة، وقد أخذ كلّ زرٍّ رقمًا معينًا، أخذ شهاب يتحسّس تلك الأزرار، وأمسك بعصا القيادة، وجاءه عبْر جهاز الاتصال صوتُ قائد السّرب العقيد/ محمد فوزي متحدّثًا بلهجة عسكرية صارمة: مِن القيادة إلى صقر ـ ٩، سنقوم بتشكيلٍ هرمي، ابقَ في الميسرة.

شهاب، وقد تقمّص شخصية الطيّار: علم، وجاري التنفيذ.

ثمّ سحب عصا القيادة للخلف، فارتفعت الطائرة عن الأرض في اتجاهٍ رأسي بكلّ سهولة وسلاسة، ثمّ دفع عصا القيادة للأمامِ بشكلٍ تدريجي فاندفعتِ الطائرة للأمام، أخذ شهاب يدفع عصا القيادة أكثرَ فأكثر حتى نهايته، وهنا انطلقت

الطائرة بسرعةٍ خرافية، وبالرغم من هذه السرعة المُذهلة إلّا أنّ «شهاب» لم يتأثّر جسده، وذلك بفضل «الكابينة» المزوّدة بأجهزة إعاشة لمعادلة تأثيرات الضغط والسرعة على أجساد الطيّارين، ثمّ ضغط شهاب أزرارَ ساعة يده وهو يقولُ بشجن:

ــ وداعًا أيّها المستقبل الجميل، وداعًا يا سلوى.

ثمّ تحوّلت الطائرة إلى حزمةٍ كبيرة من الضوء قبل أن تختفي فجأة عن الأنظار، وكأنها اخترقتِ الهواء ونفذتْ منه واختفتْ خلفه، وهنا انهمرت الدموعُ بغزارةٍ من عيني سلوى التي كانت تراقبُ ما يحدث بلوعةٍ، وكان بجانبها هالة وزوجها الدكتور مراد، وكان يجلس في منصّة العرض الرئيسية بجانب الرئيس وأعضاء مجلس الشورى الإسلامي الدكتور صادق عز الدين الذي انفعلَ بما رأى، وهو ينظر للسماء، وقد اغرورقت عيناه بالدموع لدرجةِ أنّه لم يشعر بيدِ الرئيس وهي تربتُ على كتفيْه بودّ، في حين انْفعل أحدُ أعضاء

مجلس الشورى الإسلامي، وكان العضو رقم ٧٦، وكان عن ولاية الأندلس؛ انفعل بشدّة وهو يقول:

ــ ارحمني يا إله السموات.

ثمّ وجّه حديثَه للدكتور صادق وهو يقول بانفعال: ما هذا الذي رأيناه يا دكتور!؟

ردّ دكتور صادق ولازال بصرُه معلقًا في السماء:

ــ إنّه العدل يا ولدي، ذهب يلقّن الظلمَ درسًا..

ثمّ صمتَ لبرهة قبل أن يردفَ قائلًا: درسًا سيكون شديدَ القسوة.

في حين حاول مراد وهالة أنْ يهوّنا الموقف على سلوى التي لازالت متعلّقة ببصرها في السماء، فقالت هالة: لكِ أن تشعري الآن بالسعادة والرضا يا سلوى، فلولا مساعدتك له لَمَا استطاع فعل أي شيء.

ظلّت سلوى صامتةً لا تتكلّم، وبصرها معلّق في السماء قبل أن تردف قائلة بصوتٍ يحمل كلّ معاني الأسى واللّوعة: السعادة..!

ثمّ صمتتْ ثانيةً للحظات قبل أن تغمغِمَ بشرود: يجبُ أن أنسى تلك الكلمة للأبد.

***

٧- صقر قريش ٧٦..

بمقرّ قيادة هيئة الأركان المشتركة لقوات التحالف الجوية، وقف الجنرالُ الأمريكي ديرتي بوش أمام لوحةٍ إلكترونية ضخمة يظهرُ عليها ٥٧٠ طائرةً حربية ما بين قاذفاتٍ ثقيلة ومقاتلات قاذفةٍ ومقاتلات اعتراضية ومروحياتٍ مقاتلة وطائراتِ شحن وتموين وإمداد بالوقود في الجو، وكانت متوجّهة كلّها صوبَ العراق. أخذ هذا الديرتي ينظرُ إلى اللوحة وقد بدتْ على وجهه ابتسامةٌ صفراء مَقيتة وهو يردفُ لِمَن حولَه قائلًا: مَن يراهنني أنّني سأشربُ الشاي العراقي غدًا بقصر الرئاسة ببغداد؟

ضحك جميعُ مَن سمعه، في حين أردف الجنرال البريطاني وليم سليفر: ولكنّني لا أستطيع أن أستبدلَ الشاي الإنجليزي أيًّا كان الوضع.

ضحك بوش قائلًا: فلتشربْه مِن أي جنسية يا عزيزي، على أن يكون ذلك بقصر الرئاسة ببغداد.

ثمّ وجّه بوش حديثَه لأحد العسكريّين ممّن كانوا بجانبه بودٍّ بالغ قائلًا: كيف حال طيورك اليومَ عزيزي إلياهو؟

أجاب إلياهو بن صهيون قائدُ سلاح الجوّ الإسرائيلي بكلّ غرور الدنيا: تعلم أنّها دومًا الذراع الطويلة في المنطقة يا جنرال.

ضحك بوش بشراسةٍ وهو يقول: بالتأكيد يا عزيزي، وستبقى هكذا للأبد، إنها ذراعٌ أمريكية يا رجل.

إلياهو: ولكنْ هل لي أن أسأل سؤالًا، وإنْ بدا مضحكًا بعضَ الشيء؟

بوش: على الرّحب والسعة، ما الأمر؟

إلياهو: هل هناك احتمالٌ لظهور أيّة مقاتلات عراقية في سماء المعركة؟

وهنا، ضحك بوش وجميعُ مَن سمع إلياهو، ثمّ أردف بوش قائلًا: إنّه بالفعل سؤالٌ مضحك يا عزيزي.

ثمّ اكتسى صوتُه بنبرةٍ إجرامية وهو يقول:

ولكنْ إن ظهر ما تتحدّث عنه؛ فلن يستمرّ الأمر مضحكًا، بل سيصبح مثيرًا للشفقة.

ثمّ أشار لأحدِ معاونيه الذي تحرّك لمنتصف الغرفة التي كانت تعجّ بالعسكريّين من عدّة جنسيات، وكان النصيبُ الأكبر للأمريكان والإنجليز واليهود والأستراليّين، وصاح قائلًا: انتباه!! سيادة الجنرال القائد العام سيلقي كلمةً قبل بدأ العمليات.

وهنا، انتبه الجميعُ وتعلّقت الأبصار بهذا الديرتي وهو يقول بمزيجٍ من الصّلف والغرور وهوَسِ القوة: مِن أجل الخير والعدل والمساواة، مِن أجل مبادئنا الأمريكية، مِن أجل شعبنا الأمريكي، مِن أجل رفاهية شعبنا الحرّ؛ فلتبدأ العمليات.

وصفّق الجميع، وبدا مزهُوًّا بنفسه كمَن غزا العالم بأسره، ثمّ التقط جهازَ الاتصال، وتحدّث بكلّ إجرام الدنيا قائلًا: إلى أبنائي بالأعلى، بلا رحمة.. بلا شفقة.. انْقضّوا على

أهدافكم حتى يعرف العالمُ مَن أنتم، حتى يعرف العالمُ أنكم أمريكيون.

وكان البنتاجون قد قرّر ضربَ بغداد والبصرة والموصل برؤوس نووية لإيهام العالم أنّ العراق كان يُخفي هذه الأسلحة، وبطريق الصدفة وأثناء القصف تمّت إصابتها..

أجاب الميجور هاري جونسون قائدُ سرب قاذفات بغداد، وكان على ارتفاع مائة ألف قدمٍ فوق بغداد قائلًا: عُلم وجاري التنـ.....

ثمّ بترَ عبارتَه فجأة، وأخذ يصرخُ بذهول: ما هذا؟!! مِن أينَ أتت هذه الـ.....

ثمّ اختفى صوتُه عبر جهاز الاتصال، واختفت معه طائرتُه للأبد، وصُعق جميعُ مَن شاهد ذلك، في حين أخذ ديرتي بوش يحدقُ بذهولٍ باللوحة الإلكترونية التي اختفى مِن عليها راعي البقر وطائرتُه منذ لحظات، في الوقت الذي صاح أحدُ ضبّاط المراقبة قائلًا: يا إلهي! لقد تمّ إسقاط الـ.....

وهنا، قاطعه ديرتي بوش بشراسةٍ، وصاح بعنفٍ قائلًا: اصمتْ أيّها الأحمق، لا تستطيعُ قوةٌ في الوجود إسقاط الـ B-52 LS إنّها فخر ترسانتِنا الجوية، ولا بدّ مِن وجود خطأ ما هنا أو هناك، و.....

ثمّ بترَ عبارته فجأة، واكتست ملامحُه بمزيجٍ من الرعب والذّعر، وهو يرى- وأمامَ عينه- ثلاثَ قاذفات أخرى تختفي مِن على شاشة الرّصد دفعةً واحدة، فلمْ يستطعْ أن يتمالك نفسَه، وصاحَ بهلع: ما هذا بحقّ الشيطان!؟ ما الذي يجري بأعلى؟ وهنا، صاح ضابطُ مراقبةٍ آخر قائلًا بذهول: يا إلهي، لقد اختفت تسعُ مقاتلات إف - ١٦ دفعةً واحدة، ولم نسجّل أيّة أهدافٍ معادية، ولم يستطعْ إلياهو أن ينتظرَ أكثر من ذلك فاندفع نحو ديرتي بوش، وانتزع منه جهازَ الاتصال، وأخذ يصرخُ بالعبريّة بشكلٍ هستيري قائلًا: نداءٌ إلى جميع طيّاري جيش الدفاع، انْسحب فورًا، وعُدْ للقاعدة، أكرّر.. انْسحب فورًا، وعُدْ للقاعدة.....

وكان شهاب قدْ تخطّى حاجزَ الزمن بالمقاتلة صقر قريش ـ ٧٦، وإذا به أمامَ ٥٧٠ طائرةً حربية من مختلف الطرازات.. قاذفات بي – ٥٢ وإف – ١١٧ (المعروفة بالشّبح)، ومقاتلات ميراج ٢٠٠٠ وإف – ١٦ والجكور والتورنيدو، ولمّا كانت صقرُ قريش – ٧٦ مصنوعةً من موادّ لا يعرفُها عصرنا الحالي؛ فلم تستطعْ أجهزة الرصد بما فيها الأقمار الصناعية أنْ تكتشف وجودَها، وعلى الفور بدأ شهاب العملَ وضغطَ أحدَ الأزرار، فإذا بشاشةٍ تظهر أمامَه، وقد تمّ رصدُ هذا العدد الضخم مِن الطائرات عليها، وبألوان مختلفةٍ حسبَ سرعة كلّ طائرة، ومستوى تسليحِها، وتمّ أيضًا تمثيلُ صقر قريش –٧٦ بنقطةٍ تختلف من حيث اللّون والحجم عنْ باقي النقاط الأخرى، وأخذ شهاب يحرّك عصا القيادة يمينًا وشمالًا وفي مختلف الاتجاهات، فإذا بطائرته تتحرّك بسرعة مُذهلة، وبدتِ النقاطُ الأخرى ثابتةً لا تتحرّك مِن شدّة البطء، وممّا زاد من الكفاءة القتالية لصقر قريش– ٧٦ أنّها تستطيع أن تبلغَ سرعتها القصوى انطلاقًا مِن السكون، وأنْ تتوقّف فجأة

وهي مُنطلقة بهذه السرعة ممّا يعدّ خرقًا لجميع قوانين الطبيعة في هذا العصر، وبهذه القدراتِ الخرافية وبأشعّة الليزر التي ما إنْ تصطدم بأيّ جسم ما حتى ترفعَ درجة حرارته إلى ٥٠٠٠ درجة مئوية، وتحوّله إلى رمادٍ؛ انقضّ شهاب على طائراتِ الشيطان، وأخذَ في محْوها من الوجود، وداخل غرفة العمليات ومِن على شاشة الرّصد المركزية شاهدَ الجميعُ تلك المذبحة لفخْرِ ترسانات الغرب من قاذفات ومقاتلات، انطلقت كلّها لذبح شعبٍ أعزل، وفي أقلّ من ٣٠ دقيقة اخْتفت طائراتُ الشيطان.. اختفتْ من الوجود وإلى الأبد، بعد أن تحوّلت إلى رمادٍ تذروه الرياح، وانتابَ الجميعَ حالةٌ من الرعب والهلع، وبالرغم ممّا هو معروف عن البرودِ الإنجليزي إلّا أنّ الجنرال البريطاني وليم سليفر لم يستطعْ تحمّل تلك الخسائر المروّعة في صفوف طائرات وطيّاري جلالة الملكة؛ فأصيبَ بأزمةٍ قلبيّة نُقل على أثَرها للعلاج بأحدِ المستشفيات العسكرية، في حين تسمّر ديرتي بوش أمام لوحةِ الرّصد التي أصبحت خالية تمامًا من أي طائرات، وبدا كمَن يفيقُ عقلُه بالتدريج وهو يحدقُ

بها بذهول، ولم يضفْ إليه جديدًا حين صرخ أحدُ ضباط الاتصال قائلًا: سيدي الجنرال، لقد تمّ إغراق حاملات الطائرات «تيودور روزفلت» و«هاري ترومان»، فلقد فقد الرجلُ السيطرةَ تمامًا بحيث جثا على ركبتيه، وأخذ في البكاء بشكلٍ هستيري، وقد دفنَ وجهَه بين راحتيه، في حين اندفعَ إلياهو نحوَه، وجذبه مِن ذراعه بعنف، وهو يصرخُ في وجهه: افعلْ شيئًا أيها الحقير، لقد أكّدتم لنا أنّنا لن نصابَ بأيّة خسائر، وأنّنا لنـ....

ثمّ بترَ عبارته فجأة على أثَر شهقة أطلقها أحدُ العسكريّين بجواره قائلًا بكلّ رعب الدنيا: يا إلهي، الشيطان وحدَه هو الذي يستطيع فعلَ ذلك!! قال ذلك وهو يشير بيدِه لأحد الشاشات التي التقطتْ عن طريق الأقمار الصناعية مشهدًا خُرافيًّا، لم يكن يتوقّع إلياهو أن يرى مثلَه حتى في كوابيسه، فلقد رأى وأمامَ عينه إحْدى حاملات الطائرات التي ترفع العلمَ الأمريكي وهي تشطرُ إلى نصفيْن قبل أن تختفي فجأة،

وكأنّها تبخّرت في الجو. وقفَ مذهولًا غير مصدّق لما رآه، ولم ينتزعه مِن هذا الذهول سوى صوت طلقةٍ مدوّية أطلقتْ بالقربِ منه ليلتفت الجميع، ويجدوا ديرتي بوش قد أطلقَ النار على رأسِه مباشرة لتنفجر في مشهدٍ مقزّز أصابَ الجميع بالغثيان، وبات مؤكّدًا أنه لن يشرب الشاي العراقي أبدًا.. لا في قصر الرئاسة ببغداد، ولا في أي مكان آخر، ولكنه حتمًا سيتجرّع الكثيرَ والكثير في الجحيم.

***

٨- هوليود تنتصرُ دائمًا..

امتلأت إحدى قاعات البيت الأبيض الأمريكي بالصحفيّين ومراسلي وكالات الأنباء، وكان الجميعُ في انتظار جيمي ليدر المتحدّث الرسمي باسم البيت الأبيض، والذي سيلقي بيانًا حول الحملة العسكرية للجيش الأمريكي في العراق، وفور ظهوره انطلقتْ عشراتُ الكاميرات تلاحقه بالتصوير إلى أنِ استقرّ أمام حشدٍ من الكاميرات التليفزيونية، وبدأ حديثَه بتهنئة الشعب الأمريكي على الانتصار الساحق الذي حقّقه أبناؤه في العراق مِن أجل تحرير الشعب العراقي، وإنقاذ البشرية من أسلحة الدّمار الشامل التي كانت بحوزةِ النظام العراقي، ثمّ أشاد بالضربات الجوية الشديدة الفاعلية كما وصفها، والتي نجحت في تدمير القدرات العسكرية لهذا النظام الإرهابي- على حدّ تعبيره- وكيف أن مائة ألف جندي أمريكي اجتاحوا محافظات البصرة والنجف والموصل

وكربلاء وتكريت؛ تلك المحافظات التي أخفى بها النظامُ العراقي أسلحته للدمار الشامل، وكيف أنّ الجيش الأمريكي استطاع أن يعثر على هذه الأسلحة ويدمّرها..

ثمّ استطرد قائلًا وقد بدأت الحدّة تجدُ طريقَها إلى صوته: لا شكّ أن كلّ مَن اعترضوا طريقَنا وخرجوا في مظاهرات تندّد بسياستنا، واتّهمونا أنّنا نسعى لاحتلال العراق مِن أجل سرقة بترولِه؛ لا شكّ أنّهم يشعرون الآن بالخزي والعار. ثمّ ازدادت الحدّة في صوتِه بحيث باتَ يصرخ تقريبًا وهو يلوّح بيده قائلًا: لقد كان لنا مائة ألف جنديّ في العراق، ولم تكن لتستطيع قوّة في الوجود إخراجَنا منه لو قرّرنا البقاء، ولكنّنا وفوْر العثور على أسلحةِ الدمار الشامل وتدميرها أجدُ نفسي يملأني الفخر في كوني أمريكيًّا حين أعلنُ للعالم أنّه لم يعدْ للولايات المتحدة الأمريكية أيّ جندي في العراق..

وهنا، صفّق الجميع، وبدا فخورًا مزهوًّا بنفسه، وكأنّه يصدقها، ثمّ أشار بيده لإحدى شاشات العرض التليفزيونية

قائلًا: سترونَ الآن أيّها السادة، وعلى هذه الشاشة انتصارَنا الساحق، وقد تمّ تسجيله لحظة بلحظة، ومنذ الدقيقة الأولى للمعارك.

وما أن أضاءت الشاشة حتى رأى الجميعُ أهدافًا عراقية تمّ تصويرها بواسطة الأقمار الصناعية وهي تقصف مِن قِبَل المقاتلات والقاذفات الأمريكية، ومشاهد أخرى تظهر فيها المدمّرات والقطع البحرية الأمريكية وهي تقوم بقصف أهدافٍ لها داخل العراق، ومشاهد أخرى لمعارك برية شرسة تقوم فيها الدبابات الأمريكية بإصابة أهدافها والفتكِ بها، ومشاهد أخرى لآلافِ الجنود العراقيّين وهُم يستسلمون للقوّات الأمريكية، والجنود الأمريكان يقدّمون لهم الماءَ والطعام، وكان نصيب الأسد مِن هذه المشاهد هي مشاهد الاستقبال الحافل من قِبَل الشعب العراقي للقوات الأمريكية، وكيف اصطفّ الناس في الشوارع وعلى أسطح المنازل وفي الشرفات يهلّلون ويرفعون الأعلام الأمريكية ابتهاجًا بقدوم قوّات

التحرير.. كلّ المشاهد كانت حقًّا رائعة، ولم يكنْ ينقصها أي شيء.. فقط لم يكن ينقصها سوى الحقيقة!! نعم لقد كانت كلّ تلك المشاهد ما هي إلّا مشاهد سينيمائية تمّ إنتاجها في هوليود وبأوامرَ مباشرة من البيت الأبيض، فبعد ما حدث بغرفة العمليات الجوية، وبعد أن اختفتْ من الوجود٥٧٠ طائرة وأربع حاملات طائرات وعدّة مدمّرات أمريكية لطالما سفكت دماءَ الشعوب؛ كاد الجميع في واشنطن أن يفقدَ عقله، ومَن تمالك نفسه أقسمَ أنّ ما حدث إنما حدثَ بسبب هجوم فضائي مِن كوكب مجهول، وبالرغم من المحاولات المستميتة مِن قِبَل أجهزة السي آي إيه والأمن القومي ووكالة أبحاث الفضاء الأمريكية «ناسا» لمعرفة السبب وراء ما حدث إلّا أنهم فشلوا في ذلك فشلًا ذريعًا، وبالرغم مِن تقنياتهم المهولة، والتي مكّنتهم من أن يفحصوا كلّ شبرٍ من قاع الخليج بحثًا عن أيّ حطام أو جثث أو بقايا جثث، إلّا أنهم خرجوا في النهاية بعدّة ملايين مِن علامات الاستفهام، ولكن وتحت أيّ ظرف لا بدّ وأن تخرج الولايات المتحدة وجيشُها منتصرين،

ليس مجرد انتصارٍ عاديٍّ، بل انتصارًا ساحقًا، ولا يجبُ على الإطلاق أن يهزم رامبو وكوماندوا الأمريكيّون، وإلّا كيف سيستعبد رعاةُ البقر الشعوبَ ويمتصون دمائها!!؟

وبأوامرَ مباشرة من البيت الأبيض، تمّ اعتماد مبالغ ضخمة لإنتاج العديدِ من المشاهد السينيمائية باستوديوهات هوليود الجبّارة، تكون من الدّقة والإتقان بحيث تبدو أكثرَ حقيقةً من الحقيقة نفسها، وبجيشٍ جرّار من المخرجين والممثّلين والمؤلفين والخبراء العسكريّين ومصمّمي المعارك الحربية؛ خرج الأمريكان على العالم بانتصارهم السّاحق ليرى العالمُ العراقيّين رجالًا ونساءً شيوخًا وأطفالًا وهُم يستقبلون القوات الأمريكية بالأحضان رافعينَ الأعلام الأمريكية، وصورَ الرئيس الأمريكي، وتولّت محطات إذاعية عملاقة مثل الـ«سي إن إن»، والـ «بي بي سي» مهمّة تلقين شعوب العالم- بما فيهم الشعب الأمريكي نفسه- هذه المشاهد التي باتت تُعرَض ليلَ نهار حتى أصبح كلّ كائن حيّ على سطح

هذا الكوكب يُقْسم بأنّ الولايات المتحدة انتصرت انتصارًا ساحقًا، وأخفى الأمريكان تمامًا أيّ دلائل تشير من قريب أو بعيد إلى ما حدث لهم بغرفة العمليات الجوية؛ فلقد تحفّظت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية الـ«سي آي إيه» على جميع العسكريّين ممّن كانوا موجودين بغرفة العمليات وقتَها، وأوْدعتهم مكانًا مجهولًا، وتمّ إخبار ذويهم بأنّهم سقطوا شهداءَ للمبادئ الأمريكية، ثمّ أرسلوا لهم الأوسمة والنّياشين، وبالرغم من أنّ الجنرال الإنجليزي «وليم سليفر» كان قائدَ سلاح الجو البريطاني وابن أخت ملكة إنجلترا إلّا أنّ هذا لم يحُلْ بينه وبين عملاء الـ«سي آي إيه» حيث قاموا بتصفيته، وذلك بعد أن فكّر بصوتٍ مرتفع مع أحدِ الصحفيّين بجريدة التايمز عمّا حدث بداخل غرفة العمليات، أمّا إلياهو بن صهيون فلم يكنِ الرئيس الأمريكي ليجرؤ على مجرّد التفكير في جَرْح مشاعر عاهرة إسرائيلية، فما بالك بقتل أحد جنرالات إسرائيل، وعليه فقد تمّ إلحاق إلياهو بالسفارة الإسرائيلية بواشنطن؛ للعمل بها كملحقٍ عسكري حتى يكون

تحتَ الرقابة المباشرة لجهاز الأمن القومي الأمريكي. وهكذا اختفت كلّ معالم للحقيقة، وخرج جنرالات البنتاجون على العالم وهُم يتقلّدون الأوسمة تقديرًا لبطولاتهم في الدفاع عن الحقّ والعدل والمساواة.. نعم، لقد استطاع الأمريكان بكفاءتهم المعهودة في الكذب والتضليل أن يخفوا ما حدث، ولكنهم أبدًا لم يستطيعوا أنْ يعرفوا سببَ ما حدث.. شخصٌ واحد يعرف.. شخصٌ واحد تبدو عنده الحقيقة ساطعةً سطوعَ الشهاب على صفحة السماء في ليلةٍ غاب عنها القمر... إنّه شهاب.

***

بأحدِ شوارع العاصمة العراقية بغداد عمّت الفرحة والسرور كلّ ركن من أركانه، وانْعكس ذلك على المارّة الذين أخذوا يعانقون بعضَهم البعض، وقد أطلقوا العنان لقُبُلاتهم الحارة على الوجنات الباسمة، فالضحكات انطلقت من أعماق القلب، والابتسامات العذبة ملأت الوجوه؛ الأطفال والكبار

الرجال والنساء، الجميع ذابَ في حالة من السعادة والنشوى لا مثيلَ لها، تلك السعادة التي تشبّع بها الهواء بحيث باتَ يتنفّسها الجميع. أخذ أحدُ المارّة يشقّ طريقه وسط الجموع الغفيرة التي امتلأت بها الشوارع، والسعادةُ تغمره حتى النخاع؛ فلقد كان أسعدَ مِن أيّ شخص آخر، وكان كلّما جال ببصره هنا أو هناك وجدَ السعادة والفرحة وقد تجسّدت في أقوى معانيها، فكان يزيد ذلك من مقدار السعادة التي اجتاحت كيانَه، وضربته كالإعصار، وبينما هو كذلك إذا بمَن ينقضّ عليه معانقًا إيّاه، وقد جذبه داخلَ أحدِ المحالّ ليجدَ نفسَه داخل أحدِ المطاعم، وفي استقباله، وبابتسامة تخرج من أعماق القلب صاحبُ المطعم، وهو يقول بلهجةٍ عراقية أصيلة:

ــ تفضّل يا أخي؛ فالطعامُ والشراب بالمجان، ولمدّة ثلاثة أيام؛ شكرًا لله على قهْرِه للأمريكان.

ثمّ تحوّل الرجل عنه، وأخذ في استقبال غيره بنفس الحفاوة ونفس العبارات، حتى امتلأ المكان عنْ آخره. وداخل المطعم،

وقفَ شهاب مبهورًا بما يحدث حوله، وفجأة تسمّرت عيناه أمام أحدِ المناضد، وكانت تجلس فوقَها طفلة رقيقة ذاتُ الثلاث سنوات مع أمّها وأبيها، والسعادة تملأ كيانهم، واغرورقت عيناه بالدّموع، وهو يقترب شيئًا فشيئًا ليجد الطفلة الصغيرة هي فاطمة، تلك التي ذبحَها المجرمون هي وأمّها بقذائفهم، وأبوها هذا الذي تطعمُه بيديها الصغيرتين.. أَلَمْ يتمزّق جسدُه وهو يحاولُ الفرار بها مِن قَبْل التقطها وضمّها لصدره بشوقٍ بالغ، والدموعُ تسيلُ على وجنتيه وسطَ تأثّر الرجل وزوجته، ثمّ أعادها لأمّها بعد أن ربتَ الرجلُ على كتفِه بودّ بالغ، ودعاه للجلوس وتناولِ الطعام معهم إلّا أنّه غادر المكان بتأثّر شديد ليعبرَ الشارع الذي كان يمتلئ قبل ذلك بالدّماء والأشلاء، وانطلق يركض، ولم يلبثْ أن تحوّل إلى حزمةٍ ضوئية اخترقتِ الهواء واختفتْ عن الأنظار بسرعةٍ مذهلة متّجهةً نحو المجهول.

(تمّت بحمد الله)

hakayaproduction@gmail.com

01551751909 - 01096476744